الباب الحادى عشر

أزواجه صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول

تعدد زواجه صلى الله عليه وسلم

تعدد الأزواج بعد وفاة السيدة خديجة :

روى الإمام الطبرى بسنده أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى عن تسع زوجات .

ومما هو جدير بالذكر أن تعدد أزواجه صلى الله عليه وسلم إنما كان بعد وفاة أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، وهى أول النساء إيماناً ، وقد عاشرها صلوات الله وسلامه عليه ربع قرن من الزمان ولم يتزوج عليها قط ، وكانت حين تزوجها أرملة فى سن الأربعين وماتت فى الخامسة والستين — على أرجح الروايات — وكان هو صلى الله عليه وسلم عند زواجه منها فى سن الخامسة والعشرين ، وكان عند وفاتها فى سن الخمسين ، وقد ماتت فى حياته الشريفة وقبل هجرته إلى المدينة المنورة بثلاث سنوات ، ومما هو جدير بالذكر أنه على كثرة أزواجه الشريفات لم يتزوج بكراً إلا أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

خصوم الإسلام ورد العقاد عليهم :

وإليك ما يقوله فى روعة ظاهرة العلامة العقاد فى كتابه « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » رداً على خصوم الإسلام الذين أرادوا عمداً وعبثاً تشويه سمعة النبى صلى الله عليه وسلم فى تعدد الزواج :

« ما اتفق خصوم الإسلام عن سوء نية على شىء كما اتفقوا على خطة التبشير فى موضوع الزواج على الخصوص ، فكلهم يحسب أن المقتل الذى يصاب منه

الإسلام فى هذا الموضوع هو تشويه سمعة النبى عليه السلام ، وتمثيله لأتباعه فى صورة معينة لاتلائم شرف النبوة ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق فى طلب الإصلاح ، وأى صورة تغنيهم فى هذا الغرض الأثيم كما تغنيهم صورة الرجل الشَّهْوان الغارق فى لذات الجسد العازف فى معيشته البيتية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح

« . . . وإنهم لعلى أشد الخطأ فى اختيارهم هذه الخطة بعينها ، إذ أن جلاء الحقيقة فى هذا الموضوع أهون شىء على المسلم العارف بدينه المطلع على سيرة نبيه ، فإذا بمقتلهم المظنون حجة يكتفى بها المسلم ولا يحتاج إلى حجة غيرها لتعظيم نبيه وتبرئة دينه من قالة السوء الذى يفترى عليه .

« فلا حجة للمسلم على صدق النبى صلى الله عليه وسلم فى رسالته أصدق من سيرته فى زواجه وفى اختيار زوجاته ، وليس للنبوة من آية أشرف من آيتها فى معيشة نبى الإسلام من مطلع حياته إلى يوم وفاته .

« ما الذى يفعله الرجل الشهوان الغارق فى لذات الجسد إذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغه محمد بين قومه .

« لم يكن عسيراً عليه أن يجمع إليه أجمل بناتِ العرب وأفتن جوارى الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية .

« ولم يكن عسيراً عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة فى زمانه .

« فهل فعل محمد ذلك بعد نجاحه ؟

« هل فعل محمد ذلك فى مطلع حياته ؟

« كلا لم يفعله قط ، بل فعل نقيضه ، وكاد أن ينفد أزواجه لشكايتهن من شظَفِ العيش فى داره .

« لم يحدث قط أن اختار زوجة واحدةً لأنها مليحة أو وسيمة ، ولم يَبْنِ بعذراء قط إلا العذراء التى علم قومه جميعاً أنه اختارها لأنها بنت صدِّيقه وصفيه وخليفته من بعده أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

« هذا الرجل الذى يفترى عليه الأثمة الكاذبون أنه الشهوان الغارق فى لذات حسه ، قد كانت زوجته الأولى تقارب الخمسين وكان هو فى عنفوان الشباب يجاوز الخامسة والعشرين ، وقد اختارته زوجاً لها لأنه الصادق الأمين فيما اشتهر به بين قومه من صفة وسيرة ، وفيما لقبه به عارفوه وعارفو الصدق والأمانة فيه ، وعاش معها إلى يوم وفاتها على أحسن حال من السيرة الطاهرة والسمعة النقية ، ثم وفىّ لها بعد موتها فلم يفكر فى الزواج حتى عرضته عليه سيدة مسلمة رقت له فى عزلته فخطبت له السيدة عائشة بإذنه ، ولم تكن هذه الفتاة العزيزة عليه تسمع منه كلمة ترضيها غير ثنائه على زوجته الراحلة ووفائه لذكراها .

« وما بنى عليه السلام بواحدة من أمهات المسلمين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة ، وإنما كانت صلة الرحم والضن بهن على المهانة هى الباعث الأكبر فى نفسه الشريفة على التفكير فى الزواج بهن . ومعظمهن كنّ أرامل مأيمات فقدن الأزواج أو الأولياء وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن إن لم يفكر فيهن رسول الله .

« فالسيدة سودة بنت زمعة مات ابن عمها المتزوج بها بعد عودتها من الهجرة إلى الحبشة ولا مأوى لها بعد موته إلا أن تعود إلى أهلها فيكرهوها إلى الرِّدَّة أو تتزوج بغير كفء لها أو بكفء لها لا يريدها ،

« والسيدة هند بنت أبى أميَّة — أم سلمة — مات زوجها عبد الله المخزومى وكان أيضاً ابن عمها أصابه جرح فى غزوة أحد فقضى عليه ، وكانت كهلة مسنة فاعتذرت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بسنها لتعفيه من خطبتها فواساها قائلا : سلى اللهَ يؤجرك فى مصيبتك وأن يخلفك خيراً ، فقالت : ومَنْ يكون خيراً لى من أبى سلمة ؟ وكان الرسول عليه السلام يعلم أن أبا بكر وعمر قد خطباها فاعتذرت بمثل ما اعتذرت به إليه ، فطيَّب خاطرها وأعاد عليها الخطبة حتى قبلتها ،

« والسيدة رملة بنت أبى سفيان تركت أباها وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة فتنصر زوجها وفارقها فى غربتها بغير عائل يكفلها ، فأرسل النبى عليه السلام

إلى النجاشي يطلبها من هذه الغربة المهلكة وينقذها من أهلها إذا عادت إليهم راغمة من هجرتها فى سبيل دينها . ولعل فى الزواج بها سبباً يصل بينه وبين أبى سفيان بوشيجة النسب فتميل به من جفاء العداوة إلى مودة تخرجه من ظلمات الشرك إلى هداية الإسلام ،

« والسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فعرضها أبوها على أبى بكر فسكت ، وعرضها على عثمان فسكت . وبث عمر أسفه للنبي فلم يشأ أن يضنّ على صديقه ووليه بالمصاهرة التى شرف بها أبا بكر قبله . وقال له : يتزوج حفصة من هو خير لها من أبى بكر وعثمان ،

« والسيدة صفية الإسرائيلية بنت سيد بنى قُرَيْظة خيرها النبي بين أن يردها إلى أهلها أو يعتقها ويتزوجها فاختارت البقاء عنده على العودة إلى ذويها . ولولا الخلق الرفيع الذى جبلت عليه نفسه الشريفة لما علمنا أن السيدة صفية قصيرة يعيبها صواحبها بالقصر . ولكنه سمع إحدى صواحبها تعيبها بقصرها فقال لها ما معناه من روايات لا تخرج عن هذا المعنى : إنك قد نطقت بكلمة لو ألقيت فى البحر لكدّرته ، وجبر خاطر الأسيرة الغريبة أن تسمع فى بيته ما يكدرها ويغض منها .

« والسيدة زينب بنت جحش — ابنة عمته — زوّجها من مولاه ومتبناه زيد ابن حارثة ، فنفرت منه وعز على زَيْد أن يروضها على طاعته . فأذن له النبي فى طلاقها ، فتزوجها عليه السلام لأنه المسئول عن زواجها ، وما كان جمالها خفياً عليه قبل تزويجها بمولاه لأنها كانت بنت عمته يراها من طفولتها ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها ،

« والسيدة زينب بنت خُزيمة ماتزوجها عبد الله بن جحش قتيلا فى غزوة أحد ، ولم يكن بين المسلمين القلائل فى صحبته من تقدم لخطبتها ، فتكفل بها عليه السلام ، إذ لا كفيل لها من قومها ،

« وهذا هو الحريم المشهور فى أباطيل المبشرين وأشباه المبشرين ، وهذه هى بواعث النفس التى استعصى على المبطلين أن يفهموها على جليتها ، فلم يفهموا

منها إلا أنها بواعث إنسان غارق فى لذات الحس شهوان .

« ولقد أقام هؤلاء الزوجات فى بيت لا يجدن فيه من الرغد ما يجده الزوجات فى بيوت الكثيرين من الرجال ، مسلمين كانوا أو مشركين . . . فاتفقن على مفاتحته فى الأمر واجتمعن يسألنه المزيد من النفقة ، وهى موفورة لديه لو شاء أن يزيد فى حصته من الفىء فلا يعترضه أحد ولا يحاسبه عليه ، إلا أن الرجل المُحكَّم فى الأنفس والأموال — سيد الجزيرة العربية — لم يستطع أن يزيدهن على نصيبه ونصيبهن من الطعام والزينة فأمهلهن شهراً وخيَّرهن بعده أن يفارقنه ولهن منه حق المرأة المفارقة من المتاع الحسن ، أو يقبلْن ما قبل لنفسه من ذلك العيش الكفاف . وهذا الخبر يعلمه كل من اطلع على القرآن ووقف على أسباب التنزيل ، وليس بينها ما هو أشهر فى كتب التنزيل من نزول هذه الآيات فى سورة الأحزاب .

(يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا * وإن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيماً) .

« . . . أعَنْ مثلِ هذا الرجل يقال إنه حِلْس شهوات وأسير لذَّات ؟

« . . . أعن مثله يقال إنه ابتغى من رسالته مأربًا يبغيه الدعاة غير الهداية والإصلاح ؟

« فيم كل هذا الشقاء بأهوال الرسالة وأوجالها ، من ميْعة الشباب إلى سنٍّ لامتعة فيها لمن صاحبه التوفيق والظفر ، أو لمن صاحبته الخيبة والهزيمة ؟

« ومن أراد الدعوة لغير الهداية والإصلاح فلماذا يريدها ، وما الذى يغنمه من ورائها ؟

« أتراه يريدها مخاطراً بأمته وحياته مستخفًّا بالهجرة من وطنه والعزلة بين أهله ، ليسوم نفسه بعد ذلك عيشة لا يقنع بها أقرب الناس منه وأعلاهم شرفًا بالانتماء إليه ؟

« أمن أجل الحس ولذاته يتزوج الرجل بمن تزوج بهن وهو سيد الجزيرة

العربية وأقدر رجالها على اصطفاء النساء الحسان من الحرائر والإماء ؟

« وهل يتزوج بهن الشهوان الغارق فى لذات الحس ليقتدين به فى اجتواء الترف والزينة وخلوص الضمير للإيمان بالله وابتغاء الدار الآخرة ؟

« وما مأربه من كل ذلك إن كان له مأرب فى طويته غير مأربه فى العلانية ؟ وعلام يجاهد نفسه ذلك الجهاد فى بيته وبين قومه إن لم تكن له رسالة يؤمن بها ولم تكن هذه الرسالة أحب إليه من النعمة والأمان ؟

« إن المبشرين المحترفين لم يكشفوا من مسألة الزواج فى السيرة النبوية مقتلا يصيب محمداً أو يصيب دعوته من ورائه ، ولكنهم قد كشفوا منها حجة ، لا حجة مثلها فى الدلالة على صدق دعوته وإيمانه برسالته وإخلاصه لها فى سره كإخلاصه لها فى علانيته ، ولو أنهم يعولون على جهل المستمعين لهم لا جتهدوا فى السكوت عن مسألة الزواج خاصة أشد من اجتهادهم فى التشهير بها واللغط فيها .

التعدد مشروع فى الأديان الكتابية :

ويتعرض العلامة العقاد مرة أخرى لتعدد الزواج فى كتابه « الفلسفة القرآنية » فيقول رحمه الله :

« من الأوهام الشائعة بحكم العادة أن الدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى أباح تعدد الزوجات بين الأديان الكتابية .

« وهذا وهم قد سرى إلى الأخلاد بحكم العادة كما أسلفنا ، لأن الواقع الذى تدل عليه كتب الإسرائيليين والمسيحيين أن تعدد الزوجات لم يحرم فى كتاب من كتب الأديان الثلاثة ، وكان عملا مشروعاً عند أنبياء بنى إسرائيل وملوكهم ، فتزوجوا بأكثر من واحدة وجمعوا بين عشرات الزوجات والجوارى فى حرم واحد ، وروى « وستر مارك » العالم الحجة فى شئون الزواج على اختلاف النظم الإنسانية : أن الكنيسة والدولة معاً كانتا تُقِرّان تعدد الزوجات إلى منتصف القرن السابع عشر ، وكان يقع غير نادر فى الحالات التى لا تعنى بها الكنيسة عنايتها بزواج الأسر الكبيرة .

وكل ما حدث فى القرن الأول للمسيحية أن الآباء كانوا يستحسنون من رجل

الدين أن يقنع بزوجة واحدة ، وخير من ذلك أن يترهب ولا يتزوج بتة ، فكانت الفكرة التى دعت إلى استحسان الزواج الموحد ، هى فكرة الاكتفاء بأقل الشرور ، فإن لم تتيسر الرهبانية فامرأة واحدة أهون شرًّا من امرأتين .

« . . . فكان تعدد الزوجات مباحًا فى الأديان الكتابية جميعًا ، ولم يحرم حين حرم إكباراً للمرأة وتنزيهًا لها عن قبول المشاركة فى زوجها بل كانت الفكرة الأولى فى تحريمه أن المرأة شر يكتفى منه بأقل ما يستطاع .

« . . . أباحت شريعة الإسلام تعدد الزوجات ولم تفرضه كما يبدو إلى أخلاد المتكلمين فى هذا الموضوع من الغربيين .

« . . . فلا الأديان الكتابية حرَّمت تعدد الزوجات ، ولا الإسلام حرَّم توحيد الزوجة وأوجب على المسلم أن يتزوج أكثر من واحدة ، وإنما أباح تعدد الزوجات مع ضمان العدل بين النساء .

ويقول رحمه الله فى كتابه « عبقرية محمد » .

« نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة فى شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق ، فى غير مشقة عندهم ولا معابة .

« ونسوا أنه بقى إلى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف فى طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور إليه بين الأسَر وبين الفتيات .

« ونسوا أنه لما تزوج فى تلك السن كان زواجه بسيدة فى الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين ؛

« ونسوا أنه اختار أحسابًا فى حاجة إلى التآلف أو الرعاية ولم يختر جمالاً مطلوبًا للمتاع .

«ونسوا أن الرجل الذى وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع فى بعض أيامه من خبز الشعير ، ولم يجاوز حياة القناعة قط لإرضاء نسائه وإرضاء نفسه ، ولو شاء لما كلَّفه إرضاء نفسه وإرضاؤهن غير القليل بالقياس إلى ما فى يديه .

« نسوا كل هذا وهو ثابت فى التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتى جمع بينهن عليه السلام ، فلماذا نسوه ؟

« نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن يتقوّلوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة ، وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الإغضاء عنها ، لو أنهم أرادوها وتعمّدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها .

رد الدكتورة بنت الشاطىء :

وحيا الله الدكتورة « بنت الشاطئ » إذ قالت فى كتابها « نساء النبى » .

« . . . وقد قال المستشرقون فى تعدد الزوجات ما قالوا ، ولم يرْوا فى هذا الجمع بين عدد النساء تحت رجل واحد سوى مظاهر مادية مسرفة ، وإنه لضلال أملاه التعصب الأحمق والهوى الجامح وانحراف عن النهج العلمى الذى يأبى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة صنعتها بيئة تفصلها عن بيئة محمد آباد[1] وأبعاد .

« وهذا الغرب لا يجرؤ اليوم على أن يدعى أن نظام الزوجة الواحدة يتبع فى دقة وينفذ نصًّا وروحًا .

وجهة نظرى :

هذا وأقول بعد ما تقدم إن قول الله تعالى فى سورة الأحزاب : (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً) . يستشف منه الفَطِن أَنَّ زواجه صلى الله عليه وسلم إنما هو باختيار الله له ، ولا تهمة مع الحلال ، ولا مأثم فى الطيِّب المباح ولذلك يقول تعالى فى زواجه بالسيدة زينب بنت جحش بعد أن طلّقها زيد بن حارثة (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا) .

(١) أزمان .

كما دفع الله عنه الحرج فى تعدد زواجه وزيادة عدد أزواجه عن الحد الأقصى الذى يجمعه المؤمن وهو أربع نسوة ، وكذلك فى زواجه بمؤمنة تهبه نفسها خالصة له من دون المؤمنين . فقال تعالى فى سورة الأحزاب : (يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِى آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مؤمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِىُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِى أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا) . فهو صلى الله عليه وسلم لا يتصرف فى زواجه إلا بوحى من ربه وتستشف ذلك عن قرب من قوله تعالى فى سورة التحريم : (عَسَى رَبُّه إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خيرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا) . وتأمل فى وصف ما يختاره الله لنبيه من النساء من ذوات التقوى والإيمان الحق، وكيف علّق الله إبدالهن بطلاقهن ، فحيث تمت توبتهن ولم يطلقهن فقد بقين بأمر الله فى شرف عصمته صلى الله عليه وسلم وهن متحليات بصفات المؤمنات القانتات عليهن رضوان الله .

وإذا أردت أن تعرف الخلق النبوى الزكى فى معاملتهن الكريمة مع كثرتهن فاقرأ بتدبرّ قوله تعالى فى سورة التحريم : (لِمَ تُحرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ) . وانظر كيف كشف الله بقوله : (تبتغى مرضاة أزواجك) عن نيّته الخفية فى العمل على تطييب نفوسهن ، ثم اقرأ بعد ذلك ما هدّد الله به زوجتيه الكريمتين عائشة وحفصة رضى الله عنهما فى السورة ذاتها (إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ والْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) .

فانظر رعاك الله كيف كانت غيرة الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكيف كانت ولايته له وعنايته به . وإذا جاء التهديد بهذه القوة لزوجتيه وهما ابنتا صديقيه الأثيرين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وقد غارتا غيرة نسوية معتادة من النساء بطبيعتهن ، فكيف بمن تطاول على حرمته أو سنته من الجاهلين أو الحاقدين والحاسدين ، أعاذنا الله من ذلك بمنه وكرمه ، وجعلنا ممن يصونون حرمته ، ويحفظون عهده ، وينصرون سنته ، فى الغيب والشهادة .

هذا وأضيف أن العرف لم يكن إلى عهد قريب يستنكر تعدد الزواج وخاصة فى الريف حيث يعتز الناس بعصباتهم وذراريهم ، ولقد تزوج جدى لأبى كثيرات وأنجب كثيراً من الأبناء والبنات حتى ورثه ستة عشر رجلا وثلاث عشرة بنتا وأربع نسوة ، ولم يكن المجتمع ينكر عليه ذلك بل كانوا يعدونه مظهراً من مظاهر العيشة الراضية الناعمة ، وكان أعمامى جميعاً يعتزون بأبى ويقدمونه عليهم بفضله ، ولم يكن له شقيق منهم على كثرتهم ، وكذلك عد أخوة جدى زوجاتهم وإن لم يصلوا بالعدد إلى ما وصل إليه جدى رحمهم الله جميعًا ، وكان القوم يفرحون بمصاهرة جدى لهم ، مع علمهم بضرائر يعشن فى بيت واحد ، حيث كان العرف جاريًا بالتعدد دون إنكار .

وإلى اليوم يقع التعدد فى المملكة العربية السعودية كأمر عادى وتعيش أكثر من زوجة مع زوجها فى بيت واحد ، وشهدنا ذلك بأنفسنا ، وها هى ذى إيطاليا ، وهى مهد البابا الكاثوليكى ، قد أباحت الطلاق بقانون صدر قريبًا ، ومؤدى الطلاق أن يتعدد الزواج الذى يستنكره على نبينا صلى الله عليه وسلم المتعصبون من المستشرقين والمبشرين ، فماذا هم قائلون لحكومة إيطاليا التى واجهت الحياة الاجتماعية بواقعها العملى فى غير مغالطة أو تدليس ، وإن عارضها رجال الدين المسيحى عن ظن بأن أهون الشرور الزواج بشريرة واحدة ، دون استناد إلى نص دينى بتحريم التعدد فى كتب العهد الجديد ، وكتب العهد القديم تبيح التعدد ، وهى التى تستند إليها كتب العهد الجديد عند عدم النص فيها على التحريم ، وقد بان لك مما قاله العلامة العقاد أن التحديد بواحدة جاء من رجال الدين المسيحيين أساس أن المرأة شر فليكن الاقتران بها فى أضيق الحدود إن لم يستطع رجل

الدين أن يعيش بغيرها ، ولم يكن التحديد بواحدة راجعاً إلى نص دينى .

وإذا كان المستشرقون والمبشرون يخوضون فى مسألة التعدد فلماذا ينسون أن يذكروا لنبينا صلى الله عليه وسلم أنه رفض أن يتزوج إمامنا على بن أبى طالب بزوجة أخرى على ابنته الزهراء ، وهو ما ينفى أنه أراد التعدد لنفسه عن غرام بالنساء الكثيرات ، والقصة معروفة ، فقد همّ الإمام على أن يتزوج من بنت عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى ، فذهبت السيدة الزهراء إلى أبيها باكيةً وقالت له : يزعمون أنك لا تغضب لبناتك . وجاء بنو هشام بن المغيرة ليستأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى تزويج علىٍّ بابنتهم ، فصعد صلى الله عليه وسلم المنبر والغضب باد عليه وقال على مَسْمَع من الحاضرين : « إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم علىَّ بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإنما ابنتى بضعة منّى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها ، وإنى أتخوف أن تفتن فى دينها . ومما قاله عندئذ صلى الله عليه وسلم : « إنى لست أحرّم حلالاً ولا أحل حراماً ، ولكنّ اللهَ لا يجمع بنت رسولِ اللهِ وبنت عدو الله فى بيت واحد أبداً » .

وعمرو بن هشام والدُ تلك الفتاة التى أراد أن يتزوجها الإمام على هو عدو الله أبو جهل الذى طالما آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شخصه وفى رسالته وفى أصحابه .

وكانت تلك الفتاة قد أسلمت وبايعت النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد قلت فى كتابى « السيدة خديجة الكبرى » :

« والإمام على كرم الله وجهه كان ينظر إلى السيدة الزهراء نظرتين ، أولاهما أنها زوجته الحبيبة ، وثانيتهما أنها بنت الرسول الذى آثره بها على أبى بكر وعمر ، ومعاذ الله أن يقصد إيذاءها ومضايقتها ، لذلك نراه كف عن الزواج عندما تكشف له غضبها وغضب الرسول عليه الصلاة والسلام .

« وإنك لتعجب من رقة شعور الإمام ، ومن سماحة زوجته الزهراء رضى الله عنهما ، فإنه حين عاد الإمام إلى داره بعد أن سمع الكلام المتقدم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأى زوجته الزهراء تبكى اعتذر إليها قائلا :

« هبينى أخطأت فى حقك يا فاطمة ، فمثلك أهلٌ للعفو والمغفرة » .

فأجابته : « غفر الله لك يا ابن العم » .

وقد سقت ما تقدم للتدليل على أنَّ تعدد الزوجات كان أمراً عادياً فى مألوف ذلك الزمان من جهة ، ولأدلل على أن التعدد ليس بالأمر الحتمى فى الإسلام من الجهة الأخرى كما يدعى أعداء الإسلام .

ولا يفوتنا بعد هذا أن نوجه النظر إلى أن بيت النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان ينزل فيه جبريل عليه السلام بوحى الله ، لم يكن بيت المادة الحسية والحظوظ الجسدية التى يراها أعداء الدين أنها الغاية القصوى من حياتهم ، بل كان بيت الروح الذى يُخرج الناس من ظلمات المادة الفانية إلى نور اليقين بالله واليوم الآخر ، ذلك النور الذى يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم . وقد رأى هؤلاء الأعداء على الرغم من غشاوة أبصارهم كيف آثر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم خشونة العيش وكفافه فى بيت النبوة على الحياة الدنيا وزينتها حين خيرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين نعيم الدنيا الفانى ونعيم الآخرة الباقى ، وليس هذا الإيثار إلا من نزعات الروح ونور الوجدان .

وقد مرَّ علينا قول الله تعالى لأزواجه صلى الله عليه وسلم فى سورة الأحزاب (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ) . فبيوتهن ليست كبيوت غيرهن التى لا ينزل فيها وحى السماء ، ومن ثم قال تعالى لهن مرة أخرى فى السورة ذاتها : (يَا نِسَاءَ النَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ . . .!) . كما قال لهن مرة ثالثة : (يَا نِسَاءَ النَّبِىِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً) . وإنما افترقن رضوان الله عليهن ، كما قلنا من قبل ؛ عن سائر النساء بالتربية الروحية العالية وإن اتفقن مع النساء فى النوع .

وإذا كان ذلك شأنهن عند الله تعالى فكيف بشأن الرسول الأكرم صلى الله

عليه وسلم ، إنه تجلى فى أكمل الصور التى لا يستطيع عُمْىُ القلوب أن يروها وإنما يراها أهل الإيمان الحق ، بنور البصيرة والوجدان واليقين .

ولست أدرى كيف يجهل المسلم أنّ الإسلام ينظر للزواج نظرة روحية قبل أن ينظر إليه نظرة مادية . ألم يقل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم « وفى بُضْعِ[1] أحدكم صدقة » قالوا يارسول الله نأتى النساء بشهوة وتكون لنا صدقة ، فقال صلى الله عليه وسلم لسائله مجيبًا ومُعلمًا : أرأيت لو وضعتها فى الحرام أكنتَ تُوزر ؟ قال نعم ، قال فكذلك إذا وضعتها فى الحلال فأنت تؤجر .

إن الله تعالى يقول فى منته علينا بالزواج : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) . ، فأبرزت الآية الكريمة إلى جانب السكون المودة والرحمة اللتين تربطان بين الزوجين وهما من سمات الروح وليستا من سمات الجسد .

ولقد كان أمير المؤمنين عمر يقول : ما أتيت أهلى قط بنيّة الشهوة ولكن بنية أن يرزقنى الله منها من يُوَحد الله ولا يشرك به شيئًا ، وكأنه رضى الله عنه يُنَبِّهنا بذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » .

لا ، بل إن الله تعالى جعل الألفة الروحية فى المجتمع الإنسانى الهدف السامى من اقتران الرجل بالمرأة فقال تعالى مخاطبًا جميع الناس مؤمنهم وكافرهم : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) . والتعارف سبيل الألفة الروحية وتبادل المنافع ، فأساس المنافع المادية ألفة روحية إنسانية ، وذلك ما رفع الله به العلاقة الجنسية بين الآدميين عن درجة الجنسية البهيمية .

---

(١) نطفة .

وإذا كانت الناحية الروحية ظهرت بارزةً هكذا فى العلاقة الزوجية بين الزوجين فى المجتمع الإنسانى العام فكيف كانت قائمة فى بيت النبوة الذى شعَّت أنواره على العالمين ، فنعم بها المؤمنون وتعامت عنها قلوب الجاهلين من الجاحدين والمارقين .

إن الصّحاح روت أن حنظلة رضى الله عنه لَقِيَهُ أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال له : كيف أصبحت يا حنظلة ؟ قال : نافق حنظلة ، قال : سبحان الله ماتقول ؟ قال إنَّا نكون عند رسول الله يُذَكِّرنا بالجنة والنار حتى كأنَّا نراهما رأىَ عين ، فإذا خرجنا من عنده عافسنا [1] الأولاد والزوجات والضيعات فنسينا كثيراً ، قال والله إنى أجد مثلَ ذلك انْطَلِقْ بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلقنا إليه فذكروا له ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذِّكْر لصافحتكم الملائكةُ فى فُرُشِكُم وفى طرقكم ولكنْ ياحنظلة ، ساعة وساعة ولكنْ ياحنظلةُ ساعة وساعة ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ». أقول وإذا كان ذلك شأن من اجتمع به صلى الله عليه وسلم من الصحابة فكيف بشخصه صلى الله عليه وسلم وكيف بأزواجه المؤمنات القانتات اللاتى عاشرنه عن قرب واتصال روحى .

إننا لم نقصد من كلامنا الرد على المتعصبين من المستشرقين ، فإنهم يعرفون الحق ويحيدون عنه عامدين ، وإنما قصدنا أن نحمىَ الناشئ من المسلمين الذى قد يقرأ لهم قليلا أو كثيراً فيتأثر بما يتقوَّلون به بهتانًا وظُلْمًا عن ظنّ منه بأنهم قالوا ما قالوه عن بحث علمى وغرض سليم ، فى حين أن هوى نفوسهم أضلَّهم عن الحق وأرداهم فى الضلال القديم .

زواج الهبة :

إن الله تعالى أباح أن تَهب بعضُ المؤمنات نفسها له صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا

---

(١) عافسنا أى خالطنا وتشاغلنا .

خالِصةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) . أى إن وهبت نفسها بدون صداق وهى مزيةٌ له وحده صلى الله عليه وسلم لا تتعداه إلى أحد غيره .

وفى تقييد الله الواهبة نفسها بالإيمان مزية أخرى له صلى الله عليه وسلم وللواهبات ، فإن الكافرة لا تحل له ، وقد قال ابن العربى : ما كان من جانب الفضائل والكرامة فحظه فيه أكثر ، وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها أطهر ، فجوَّز لنا (أى نحن المؤمنين) نكاح الحرائر الكتابيات ، وقصره صلى الله عليه وسلم على المؤمنات لجلالته ، وإذا كان لا يحل له من لم تهاجر من المؤمنات لنقصان فضل الهجرة ، فأحرى ألا تحل له الكافرة الكتابية لنقصان الكفر .

أقول : وفى ذلك إشارة إلى قول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِى آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ النبى أَن يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِى أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيماً) .

فقوله تعالى : (اللاتى هاجرن معك) أى لا يباح لك من قرابتك إلا من هاجر إلى المدينة لقوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلاَيَتِهِمْ مِنْ شَىْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا) . فمن لم يهاجر لم يكمل ، ومن لم يكمل لم يصلح للنبى صلى الله عليه وسلم الذى آتاه الله كل الشرف والكمال ، صلى الله عليه وسلم ، ومن باب أولى لا يحل له صلى الله عليه وسلم نكاح الحرة الكتابية وإن حلت لغيره من المؤمنين .

وقد روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت أغار على اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أما تستحى امرأة أن تهب نفسها لرجل ؟ حتى أنزل الله تعالى : (تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ

وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) . فقلت : والله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك .

وقال الزمخشرى الموهوبات أربع : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وأم شريك بنت جابر ، وخَوْلَة بنت حكيم.

ويقول الإمام القرطبي : وفى بعض هذا اختلاف ، قال قتادة : هى ميمونة بنت الحارث ، وقال الشعبي هى زينب بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية ، وقال على بن الحسين والضحاك ومقاتل هى أم شريك بنت جابر الأسدية ، وقال عروة بن الزبير هى أم حكيم بنت الأوقص السلمية .

الفصل الثانى

سيداتنا أمهات المؤمنين
رضى الله عنهن

ترتيب الأزواج الطاهرات :

ترتيب نسائه التسع اللاتى توفى عنهن صلى الله عليه وسلم – فيما رواه الإمام الطبرى – كما يلى :

١ – السيدة سودة بنت زمعة (وكانت ثيِّباً) ، بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد وفاة السيدة خديجة وهاجر بها إلى المدينة (وقد توفيت سنة ٥٤ هـ) .

٢ – السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وهى البكر الوحيدة بين أزواجه رضى الله عنهن (وقد توفيت سنة ٥٩ هـ) .

٣ – السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وكانت ثيِّباً رضى الله عنها (وقد توفيت سنة ٤٥ هـ) ، وقد طلّقها رسول الله طلقة واحدة حين أفشت للسيدة عائشة ما كان أسرَّه لها رسول الله صلى الله عليه وسلم من تحريم مارية (أو العسل فى رواية أخرى) فقال لها أبوها : لو كان فى آل الخطاب خير لما كان رسول الله طلقك ، ثم شفع فى مراجعتها جبريل عليه السلام ، وفى قول آخر إنه عليه الصلاة والسلام همّ بطلاقها ، فقال جبريل : لا تطلقها فإنها صوّامة قوّامة و إنها من نسائك فى الجنة ، فلم يطلقها صلى الله عليه وسلم .

٤ – السيدة أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة رضى الله عنها ، وكانت ثيِّباً وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل واقعة الأحزاب سنة ثلاث من الهجرة (وسنة أربع فى قول آخر) ، وقد توفيت سنة ٥٩ على الأصح .

٥ – السيدة جُوَيْرية بنت الحارث وكانت ثيِّباً وقد تزوجها رسول الله صلى الله

عليه وسلم سنة خمس فى عام المريسيع ، وكانت صفيته يوم المريسيع فأعتقها وتزوجها وسألتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم عِتْقَ ما فى يده من قومها فأعتقهم لها ، رضى الله عنها « وقد توفيت سنة ٥٦ هـ » .

٦ — السيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ، وكانت من مهاجرات الحبشة هى وزوجها ، فتنصر زوجُها وصبرت هى على إسلامها ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى ليخطبها له ، وذلك فى سنة سبع وبعث بها النجاشى بعد زواجها إلى النبى صلى الله عليه وسلم (وقد توفيت سنة ٤٤ هـ) .

٧ — السيدة زينب بنت جحش ، وكانت قبل زواج الرسول صلى الله عليه وسلم متزوجة من مولاه زيد بن حارثة رضى الله عنه ، فلما طلقها زيد زوَّجها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وكان سفيره فى ذلك جبريل عليه السلام ، وكانت رضى الله عنها تفخر على نسائه الأخريات وتقول : أنا أكرمكن وَليًّا وأكرمكن سفيراً . زوجكن آباؤكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات والسفير فى ذلك جبريل عليه السلام (وقد توفيت سنة ٢٠ هـ) وهى بذلك أسرعهن لَحاقاً به صلى الله عليه وسلم . وقد قال صلى الله عليه وسلم لنسائه يومًا « أسرعكن لحاقًا بى أطولكن يداً . فجعلن يقسن أيديهن وما منهن إلا من تتمنى أن تكون هى صاحبة اليد الطولى ، ثم ظهر لهن أن المراد بطول اليد « الصدقة والعمل الصالح » فغبطن زميلتهن السيدة زينب هذه . وكانت رضى الله عنها تعمل بيدها وتتصدق كثيراً على الفقراء .

٨ — السيدة صفية بنت حُيَىْ بن أخطب ، وكانت صفيته يوم خيبر ثم عرض عليها الإسلام فأسلمت ، فأعتقها وتزوجها سنة ست من الهجرة (وقد توفيت سنة ٥٠ هـ وقيل ٥٢ هـ) .

٩ — السيدة مَيْمُونة بنت الحارث ، وكانت ثَيِّبًا ، وهى أخت أم الفضل امرأة عمه العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما ، وقد تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرف فى عمرة القضاء . والقرشيات من أزواجه الطاهرات خمس[1] وهن

---

(١) أى غير سيدتنا خديجة التى توفيت فى حياته الشريفة صلى الله عليه وسلم ، أوسع الله لها فى رضوانه .

سيداتنا وأمهاتنا: عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضى الله عنهن، وثلاث من سائر العرب وهن سيداتنا وأمهاتنا : ميمونة وزينب بنت جحش وجويرية وواحدة من بنى هارون وهى سيدتنا وأمنا صفية .

وأضاف الإمام الطبرى يقول :

وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم السيدة زينب بنت خُزَيْمة وهى التى يقال لها أم المساكين ، من بنى عامر بن صعصعة وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب أخى عبيدة بن الحارث ، وقد توفيت بالمدينة فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ٣٩ شهراً من الهجرة (وعاشرته ثمانية أشهر) .

وعدَّد الإمام الطبرى أزواجه اللاتى لم يدخل بهن ، ثم قال : وأفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ريحانة بنت زيد من بنى قريظة ، وأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم مارية القبطية ، أهداها له المقوقس صاحب الإسكندرية ، فولدت له إبراهيم عليه السلام .

عناية الله بالأزواج الطاهرات :

هذا والناظر فى كتاب الله عز وجل ، يرى أن نساءه الشريفات صلى الله عليه وعليهن كن موضع عناية خاصة من الله تعالى ، وإليك البيان :

أولا : قال تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِن أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ . ففرض الله لهن الأمومة والحرمة على جميع المؤمنين . ويقول الإمام القرطبى رضى الله عنه : وقد شرف الله تعالى أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أمهات المؤمنين ، أى فى وجوب التعظيم والمبرة والإجلال وحرمة النكاح على الرجال ، وحجبهن رضى الله عنهن بخلاف الأمهات ، ثم هذه الأمومة لا توجب ميراثًا كأمومة التبنى ، وجاز تزويج بناتهن ولا يُجْعلن أخوات للناس . وأضاف الإمام يقول : واختلف فى كونهن كالأمهات فى المحرم وإباحة النظر على وجهين :

أحدهما : هن محرم ، لا يحرم النظر إليهن .

الثانى : أن النظر إليهن محرَّم ، لأن تحريم نكاحهن إنما كان حفظًا لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن ، وكان من حفظ حقه تحريم النظر إليهن .

ثانياً : أن الله تعالى خاطبهن خطاباً مباشرًا وفى ذلك تكريم وأى تكريم فاستمع مثلا إلى قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لها الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكان ذلِك عَلَى اللهِ يَسِيرًا * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لهَا رِزْقاً كَرِيماً * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً * وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * واذْكُرْنَ مَا يُتلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيرًا) .

وظاهر من ذلك أن الله ضاعف لهن العقاب والثواب لمكانتهن الخاصة من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهن تشرفن بصحبته وعشرته فى مهبط الوحى الذى ينزل عليه بأوامر الله ونواهيه ، فإذا خرجن عن حدود الله ، وحاشاهن ، تأذى بذلك صلى الله عليه وسلم وقد قال تعالى فى سورة الأحزاب : (إِنَّ الَّذِين يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً) . وقد روى الإمام القرطبى عن أبى رافع أن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه كان كثيرًا ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب فى الصبح ، وكان إذا بلغ : (يا نساء النبى) رفع بها صوته ، فقيل له فى ذلك فقال: أُذكِّرهُنَّ العهد. وقال أهل التفسير إن الرزق الكريم هو الجنة .

وقد التزمن رضى الله عنهن ما وعظهن به الله حتى لقد قيل للسيدة سَوْدة رضى الله عنها: لم لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك، فقالت: قد حججت واعتمرت فأمرنى الله أن أقر فى بيتى. قال الراوى: فو الله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها.

أما ما كان من خروج السيدة عائشة للعراق فقد كان للإصلاح بين إمامنا على وطلحة والزبير باعتبارها أم المؤمنين، ولم تكن ولا كانوا جميعاً يتوقعون أن يقع بين الفريقين القتال المرير الذى وقع فى معركة «الجمل» ولكن غلب القضاء، وندم كل من طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة وتابوا إلى الله توبة نصوحاً رضى الله عنهم.

وسأتعرض فى الفصل الثالث لتفاصيل موقف أم المؤمنين عائشة فى معركة «الجمل» إتماماً للفائدة.

ثالثاً: وقد خاطب الله السيدتين عائشة وحفصة كذلك خطاباً مباشراً فى سورة التحريم، فقال تعالى: (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قلوبُكُما وإِنْ تَظاهَرَا عَلَيْهِ فَإِن اللهَ هُوَ مَوْلَاه وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمؤْمِنِينَ والمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ).

ثم وجه سبحانه الخطاب المباشر لجميعهن فقال تعالى فى سورة التحريم (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وأَبْكَارًا).

أما ما خوطب به مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بداية سورة التحريم فهو قوله تعالى: (يأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاةَ أَزواجِكَ والله غَفُورٌ رحيمٌ ۝ قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُم والله مَوْلَاكُم وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ).

وقد روى الدارقطنى عن ابن عباس عن عمر قال: دخل رسول الله صلى

الله عليه وسلم بأم ولده « مارية » فى بيت « حفصة » فوجدته معها ، وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها فقالت له : تُدْخلها بيتى ؟ ما صنعتَ بى هذا من بين نسائك إلا من هوانى عليك ، فقال لها : لا تذكرى هذا لعائشة فهى (أى مارية) حرام علىّ إن قربتها قالت حفصة : وكيفَ تحرم[1] عليك وهى جاريتك ، فحَلف لها ألا يقربها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لا تذكريه لأحد » فذكرته لعائشة ، فآلى صلى الله عليه وسلم لا يدخل على نسائه شهراً ، فاعتزلهن تسعًا وعشرين ليلة فأنزل الله عز وجل (ياأيها النبى لم تُحَرِّمُ ما أحلَّ الله لك ...)

وقد قلت فى محاضرة لى ألقيتها بنادى التجارة منذ عشر سنوات ما يأتى :

« والمقصود بالتحريم هنا هو الامتناع عن الانتفاع بالأزواج لا اعتقاد كونه حرامًا بعد ما أحلَّه الله تعالى ، وكان الدافع له صلى الله عليه وسلم على التحريم غرضًا نبيلا كشف الله سبحانه عنه بقوله تعالى : (تبتغى مرضاة أزواجك) وما أعظمه من خلق رفيع وكيف لا يفعل وقد قال صلوات الله وسلامه عليه : « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلقًا وخياركم خياركم لنسائهم » .

وأود أن أسترعى النظر إلى السياق الكريم الذى بدأت به السورة ، والذى تضمن تعظيم الرسول وتوقيره بقوله تعالى (يا أيها النبى) .

ثم أضفت قائلا :

« والمغفرة والرحمة التى جاءت بعد السؤال (لِمَ تُحرم . . .) تنصرفان إما إلى تضييقه صلى الله عليه وسلم على نفسه وإما إلى العدول عن المحلوف عليه عن اليمين ، ولا ينصرفان ألبتة إلى ذنب يُؤخذ عليه ، إذ ليس له صلى الله عليه وسلم صغيرة ولا كبيرة ، وكيف نعد ذلك ذنبًا مع أن الله أكرمه فى هذه الواقعة فى ذاته ، وأكرم به أمته ، بأن أحل للأمة عقدةَ الأيمان فقال تعالى :

---

(١) وفى رواية مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا ، قالت فتواطأت أنا وحفصة أن أيّتنا ما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلتقل إنى أجد منك ريح مغافير : أكلت مغافير (حلواء من صمغ متغير الرائحة) فدخل على إحداهما فقالت له ذلك ، فقال بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزل (لم تحرم ما أحل الله لك) إلى قوله (إن تتوبا إلى الله .....) لعائشة وحفصة .

(قَدْ فَرَضَ اللهُ لكم تَحِلَّةَ أيمانِكم . . .) فأجاز بذلك التحلل من اليمين بكفارتها إذا أحب الحالف استباحة المحلوف عليه وهو قوله تعالى فى سورة المائدة : (لا يُؤاخذُكُمُ اللهُ باللَّغْوِ فى أيْمانِكُمْ ولَكِنْ يُؤاخِذُكم بما عقَّدتمُ الأيمان فكفَّارَتُه إطعامُ عشرةِ مساكين من أوسط ما تُطْعِمون أهليكم أو كِسْوتُهم أو تحرير رَقَبةٍ فمن لم يَجدْ فصيام ثلاثةِ أيّامٍ ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفَظُوا أيمانَكُم كذلكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكمْ آياته لعلكم تَشْكُرون) .

« وانتفاعاً بهذا الحكم الذى وسَّع الله به على الأمة المحمدية كفَّر صلى الله عليه وسلم عن يمينه وعاد إلى عِشْرة السيدة مارية فعَمَّم سبحانه الرحمة ببركته صلى الله عليه وسلم .

« وكيف تعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أوخذ فى هذه الواقعة مع أن الله كشف له الخبيء فيما تحدثت به السيدة حفصة للسيدة عائشة ، مخالفة بذلك ما وصاها به صلى الله عليه وسلم من كتمان الأمر . وذلك مما تشير إليه الآية الكريمة :

(وإذ أسرَّ النبيُّ إلى بعض أزواجه حديثًا فلَمَّا نبَّأتْ به وأظهره الله عليه عرَّف بعضَه وأعرضَ عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبَّأنِىَ العليم الخبير) .

« ثم ولِىَ هذا من باب التكريم والغيرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نزل التهديد من السماء لزوجتيه حفصة وعائشة رضى الله عنهما فى قوله تعالى : (إنْ تَتُوبَا إلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما . . .) وصغت معناها : مالت عن الحق .

« وهذا التهديد يكشف بكل وضوح عن رضا الله السامى وعن تصدِّى الله للدفاع عن مقامه صلى الله عليه وسلم ، ولا عجب فهو الحبيب المقرب والرسول المؤيَّد .

« ولو كان فيما أتاه صلى الله عليه وسلم من تحريم « مارية » ما يؤخذ عليه ، ما واجه الله زوجتيه اللتين تظاهرتا عليه بهذا الخطاب ، وتهديدهما بهذه القوة البالغة ينفى أى مأخذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويلقى بالمأخذ على سيدتنا حفصة وعائشة رضى الله عنهما لأنهما الطرف الآخر فى الخصومة ، ومن أصدق من الله حكمًا .

« وما قرأت هذا التهديد مرة إلا تعاظمتنى حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقول لنفسى إذا جاء التهديد لزوجتيه المتظاهرتين ، وتعدى منهما لسائر أزواجه بهذه القوة عن غيرة نسائية طبيعية ، فكيف بالأمور الأخرى التى تنطوى على نقد لسنته صلى الله عليه وسلم ، أو الإساءة إلى أصحابه وأحبابه ؟ رزقنا الله وإياكم سمو الأدب فى حقه صلى الله عليه وسلم .

« وقد تابت بحمد الله الزوجتان الكريمتان المتظاهرتان ، وأنابَ قلباهما الطاهران إلى الله ، وكذلك فعل سائر نسائه صلى الله عليه وسلم فلم يطلقهن ، ولم يُبْدِ له الله خيرًا منهن لأن الإبدال كان مشروطًا بالطلاق فى قوله تعالى : (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَه أَزواجًا خيرًا منكنّ) . . . فبقين جميعاً فى عصمته وفى خيرٍ من عشرته صلى الله عليه وسلم ، وهذا من فضل الله عليهن رضى الله عنهن .

وأود أن أضيف الآن إلى قولى المتقدم أنَّ ناساً من المتخرِّصين يتجرأون على مقامه صلى الله عليه وسلم فيما يكتبون ، ويحتجّون فيما يَخرجون به عن الأدب بأنه بشر مثلنا ، ويسيئون فهم هذه البشرية ، فيقيسون نزعاته بنزعاتنا بجامع البشرية بيننا وبينه صلى الله عليه وسلم ، مع أنهم لو تأملوا فى مثل قوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى) ، وفى مثل قوله تعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) . وفى مثل قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنتَ تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورًا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) . بل أقول وفى مثل آيات سورة التحريم التى خاطب الله بها نساءه ، وهى التى مرَّت عليك

من قبل ، أقول لو تـأملوا أقل التـأمل ، لوجدوا أنهم أخطأُوا فى تصوير بشريته المطهرة صلى الله عليه وسلم وفى قياسها على بشريتنا الملوثة ، فهو بشر من حيث الجنس ، ونور من حيث النفس إذ طهّره الله من الرجس ، فتزكى حسه ، وصفا ظاهره وباطنه ، فاستقام فى جميع أحواله وأحيانه ، فى سره وجهره ، وفى رضاه وغضبه ، وفى يسره وعسره ، وسفره وحضره ، وكيف لا يكون كذلك وقد أحاطه الله بعنايته وكلأه برعايته حين قال له (فإنك بأعيننا) وإذا كان الله تعالى قد قال لأخيه موسى عليه السلام : (واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) كما قال له : (إنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ برِسَالَاتِى وبكَلَامِى فَخُذْ ما آتيْتُكَ وكُنْ من الشَّاكِرِينَ) فكيف بأمير الأنبياء والمرسلين ، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه «لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعى »

إن اللؤلؤ أصله من بعض قطرات المطر ، يستودعها الله فى الأصداف فتكسب الصفاء من باطنها بعد استقرارها مدة فى بواطن البحار وذلك بقدرته سبحانه ، فهل استوى كل الماء مع اللؤلؤ الذى أصله من الماء حتى يقول هؤلاء إن النبى بشر ويتهجمون عليه عن جهل بالمقارنة بينه وبين البشر بما آتاه الله من فضل كبير .

إن المؤمن والكافر ، والمنافق والفاسق ، والصادق والكاذب ، والأمين والخائن ، والذكى والغبى ، والفصيح والعيىّ ، والضعيف والقوى ، كلهم من البشر من حيث أصلهم ، فهل تساووا عند الله أو عند البشر فى المواهب ؟ وهل يتساوون فى أولاهم وعقباهم فى أى ميزان ؟ إن أزواجه صلى الله عليه وسلم من النساء ، ولكن الله خاطبهن قائلا فى سورة الأحزاب (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء . .) وقد فارقن النساء فى المسلك وإن اتفقن معهن فى الجنس .

فإذا أردت أيها المسلم الصادق أن تعرف صورة رسولك عند ربك ، فاقرأ إلى جانب سورة التحريم سورة الحجرات حيث يؤدب الله المؤمنين فى معاملة

رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول تعالى : (يـٰأَيُّهَا الَّذِين آمنوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللهِ ورَسُولِهِ واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ سَميعٌ عليمٌ ، يـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعمالُكُمْ وأَنْتُم لَا تَشْعرون ، إنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ للتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ عَظِيمٌ ، إنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إليهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

ونأخذ من معنى هذه الآيات البينات ألا يسبق المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل ، بل ينتظرون قوله وفعله فى أمور الدنيا أو الدين ، وقد جاء فى تفسير الإمام القرطبي : إن من قدَّم قوله على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد قدمه على الله تعالى ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يأمر عن أمر الله عز وجل . أما رفع الصوت فى حضرته ففيه خروج على توقيره صلى الله عليه وسلم ، ومن لم يرع توقيره كفر من حيث لا يشعر ، لأن العمل لا يحبطه إلا الكفر والعياذ بالله . وقد قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله : حرمة النبي صلى الله عليه وسلم ميتًا كحرمته حيًّا ، وكلامه المأثور بعد موته فى الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه ، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ولا يعرض عنه ، كما كان يلزمه ذلك فى مجلسه عند تلفظه به . وكلامه صلى الله عليه وسلم من الوحى ، وله من الحرمة مثل القرآن .

وسترى فيما بعد أن الخليفة أبا جعفر المنصور رفع صوته بجوار القبر الشريف فنهاه إمامنا مالك وقال له : يا أمير المؤمنين . . إن الله أدَّب قومًا فقال : (يـٰأَيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي[1] . . .) ومدح قومًا فقال (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله[2] . . .) فأذعن أبو جعفر .

---

(١) سورة الحجرات آية ٢ .

(٢) سورة الحجرات آية ٣ .

أقول ، ولهذه الحرمة كان إمامنا مالك رضى الله عنه يغتسل إذا أراد أن يحدث الناس بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان يجلس على المنصة وهو يحدثهم بالحديث النبوى الشريف ، وكان رضى الله عنه لا يركب دابة فى المدينة المنورة وكان يقول فى ذلك : كيف أطأ بحافرِ دابة أرضاً تضم جَدَثَ النبى صلى الله عليه وسلم ، واستفسر منه أبو جعفر المنصور : أيستقبل القبلة ويدعو أو يدعو وهو مستقبل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له إمامنا مالك رضى الله عنه : ولِمَ تصرفُ وجهَك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم .

وقد حدثنى حين كنت فى المدينة المنورة السيد محمد صادق المجدَّدى — سفير أفغان السابق بمصر — أنه كان يدعو ربه وهو مستقبل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه بعض المتزمتين وقال له استقبل القبلة ولا تستقبل وجهَ رسول الله ، فأجابه السيد المجددى إنى أفقه دينى خيراً منك ، إن القبلة تستقبل فى الصلاة ، وأينما تولوا فثم وجه الله ، ولولا هذا الرسول الكريم ما عرفت القبلة .

وها أنت ذا قد رأيت فى كتاب الله الكريم أنَّ خفض الصوت فى حضرته صلى الله عليه وسلم من سيما الأتقياء فقال تعالى (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) فكيف بنشر دعوته وسنته والدفاع عن شريعته والغيرة على مكارمه وفضائله واستحسان شمائله ، وكيف بالتأسى به قولا وفعلا وحالا .

وإذا كان رفع الصوت فى حضرته صلى الله عليه وسلم موجباً للكفر والعياذ بالله فكيف بنقده فى تصرفاته والجرأة على تحسين ما استقبح أو استقباح ما استحسن ، وكيف بإنزاله إلى بشريتنا الدنية وأخلاقنا الغريزية المستهجنة بحجة أنه بشر ، ألا فليتق الله أولئك الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . . .

أما وقد علمنا الله كيف نحفظ حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شخصه ، فلنحفظ حرمته فى بيئته ، بحفظ حرمة أهله وأزواجه وذريته وصحابته ، وما وقع من خلاف بينهم أو اختلاف لا يصرفنا عن ثناء الله عليهم وتخليدهم بفضلهم وجهادهم فى كتاب الله الكريم ، كما لا يجوز أن نغفل عن قوله تعالى :

(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأَجْرًا عظيماً) .

ويقول الإمام القرطبي فى تفسيره لهذه الآية :

« إن قول الله منهم فى الآية ليست مُبَعِّضةً لقوم من الصحابة دون قوم ، ولكنها عامة مجنسة مثل قوله تعالى (فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثانِ) لا يقصد التبعيض لكنه يذهب إلى الجنس أى فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، لأن الرجس يقع من أجناس شتى منها الزنا والربا وشرب الخمر والكذب ، فأدخل « من » يريد بها الجنس وكذا « منهم » أى من هذا الجنس يعنى جنس الصحابة ، وترى مزيد بيان فى عصمته صلى الله عليه وسلم وفى فضل السادة آل البيت والسادة الصحابة فى مواضع أخرى من الكتاب .

رابعاً : كان مما خوطبن به عليهن الرضوان قوله تعالى : (وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وآتِينَ الزَّكَاةَ وأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ، واذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ والحكمة إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا) . وهو ما يدل على عناية الله بهن فى تطهيرهن وتزكيتهن بالتقوى والبعد عن المعاصى ، واعتبارهن من أهل بيته الذين لاحظتهم العناية الربانية عطاء واختصاصًا فى الأزل .

ولئن قال بعض العلماء بأن قوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) إنما هو منصرف خاصة إلى الإمام على والسيدة الزهراء والسبطين الحسن والحسين رضى الله عنهم ، فإن سادتنا عطاء وعكرمة وابن عباس رضى الله عنهم قالوا هم زوجاته خاصة لا رجل معهن ، وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن .. .)

والذين خصصوها بالإمام على وزوجته وابنيه احتجوا بأحاديث واردة ، وبأنه لو أريد نساؤه لقال تعالى (عنكن) و (يطهركن) ، ورد أهل العلم عليهم بأن التذكير فى الآية راجع إلى لفظ الأهل ، وأيّدوا ذلك بقوله تعالى لامرأة سيدنا إبراهيم عليه السلام (أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ

وبرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) .

ويقول الإمام القرطبي فى تفسيره :

« والذى يظهر من الآية أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم ، وإنما قال تعالى (ويطهركم) لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليًّا وحسنًا وحسينًا كان فيهم ، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غُلِّب المذكر ، فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت لأن الآية فيهن ، والمخاطبة لهن يدل عليه سياق الكلام .

أما قوله تعالى : (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة . . .) فيقول الإمام القرطبي إن الذكر هنا يحتمل ثلاثة معان :

١ — اذكرن موضع النعمة إذ صيَّركن الله فى بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة .

٢ — اذكرن آيات الله وأقدرن قدرها ، وفكرن فيها حتى تكون منكن على بال، لتتعظن بمواعظ الله تعالى .

٣ — بمعنى احفظن واقرأن فكأنه يقول : واحفظن أوامر الله وبلغن إلى الناس ما يُنَزَّل فى بيوتكن وما تسمعنه أو ترينه من أقوال أو أفعال رسول الله .

أقول : وهذا التفسير الأخير يدل على أنهن نائبات عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تعليم الناس وتربيتهم فى دين الله ، وذلك شرف ما بعده شرف ، والناظر فى كتب السنة يرى أنهن رضوان الله عليهن قمن بهذا التكليف ما وسعهن الجهد ، وكان لسيدتنا عائشة فى هذا المجال على الخصوص قدم راسخة كما ترى فى مناقبها فى غير هذا الموضع بما هيأها الله له من استعداد كبير للحفظ والرواية والدراسة فى ذكاء مشهود وورع معهود . وكيف لا يقمن بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقد قال تعالى لهن : (وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً) .

خامسًا : إن الله تعالى خيَّرهن فى قوله تعالى : (يٰأَيها النبي قل لأزواجك إن كُنْتُنَّ تُردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أُمَتِّعكنَّ وأسرِّحكن سَراحًا جميلا ، وإن كنتن تردن اللهَ ورسولهَ والدارَ الآخرة فإن الله أعدَّ للمحسنات

منكن أجراً عظيماً) . واختلف العلماء فى كيفية هذا التخيير على قولين :

١ – خيَّرهن بين البقاء على الزوجية أو الطلاق فاخترْن البقاء .

٢ – خيرهن بين الدنيا فيفارقهن ، وبين الآخرة فيُمسكهن .

ويقول الإمام القرطبي : والقول الأول أصح لقول السيدة عائشة رضى الله عنها لمَّا سُئِلَتْ عن الرجل يُخَيِّر امرأته فقالت: خَيَّرنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أفكان طلاقًا ؟

أقول : وأيًّا ما كان التخيير على القول الأول أو الثانى ، فإنه يدل على عناية خاصة من الله بهن ، لأنه تعالى أفسح لهن ، وأعطاهن فرصة التخيير وشجعهن على البقاء فى عصمته اختياراً للآخرة على الدنيا بقوله تعالى : (وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدَّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً) فكأنه قال لهن إن الإحسان فى بقائكن فى عصمته مع الصبر على عيشة الكفاف التى شكوتُنَّ إليه منها وطالبتُنَّه بالتوسعة عليكن وزيادة النفقة ، وقد بلغ من عيشة الكفاف التى ارتضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبر عليها وكانت موضع شكوى منهنَّ أن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : كنَّا نرى الهلالَ والهلالَ والهلالَ ولا نوقد ناراً (أى لا يطبخن شيئًا) ، فقيل لها ، فكيف كنتم تأكلون ؟ قالت كنا نعيش على الأسْوَدَيْنِ التمر والماء .

ويرى العلامة العقاد أن عيشة الكفاف التى بلغت ذلك الحد وصبر عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يملك كل شىء فى الجزيرة العربية وأموالها إنما هى برهان ساطع الدلالة على صدق نبوته ويقول رحمه الله : إن لم يكن هذا هو برهان النبوة فأى برهان يكون ؟

أقول : ولا تعجب من ذلك التقشف وقد خُيِّر صلوات الله وسلامه عليه بين أن يكونَ نبيًّا مَلِكًا أو نبيًّا عبداً فاختار أن يكون نبيًّا عبداً ، فقد عرض عليه إسرافيلُ عند الصفا أن يحول له جبال مكة ذهبًا بإذن الله فقال : لا يارب ، أجوعُ يومًا وأشبع يومًا ، أجوع فأذكرك وأشبع فأحمدك ، فقال له جبريل عليه السلام وكان مع زميله إسرافيل : ثبتك الله بالقول الثابت يا محمد .

وقد روى أنه حين نزلت آيتا التخيير المذكورتان ، بدأ صلى الله عليه وسلم بالسيدة عائشة وكانت رضى الله عنها أحبهن إلىّ قلبه الطاهر ، فخيَّرها وقرأ عليها ما نزل وقال لها : إنى ذاكر لك أمراً ولا عليك أن تتعجلى فيه حتى تستأمرى (أى تستشيرى) أبويك ، فقالت وهى الرشيدة الموفقة : أفى هذا أستأمر أبوىّ ؟ إنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة ، فرؤى الفرح فى وجهه صلى الله عليه وسلم وكذلك جاراها سائر أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن .

سادساً : أن الله تعالى ضاعف لهن العقاب والثواب فى قوله تعالى: (يانساء النبىِّ من يأتِ منكُنَّ بفاحشة مُبَيِّنة يُضاعَفْ لها العذابُ ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ، ومن يَقنُتْ منكنَّ لله ورسوله وتعمل صالحًا نُؤتِها أجرَها مرَّتَيْنِ وأعتدنا لها رِزْقًا كريمًا) ويدل ذلك على منزلتهن الخاصة عند الله بما لهن من رابطة الزوجية برسوله ، فى بيوتهن ينزل الوحى بأوامر الله ونواهيه ، وفى بيوتهن يشهدن من همة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طاعة الله مالا يراه غيرهن ، فضاعف الله لهن العقاب والثواب على قدر حرمتهن ومنزلتهن الخاصة ، لأنه كلما زادت الحرمات ضوعفت العقوبات . ولذلك ضوعف حدّ الحر من العبد ، والثيِّب من البكر ، كما هو معلوم من أحكام الله .

سابعاً : إن الله تعالى جعل من زواجه صلى الله عليه وسلم بإحداهن ، وهى السيدة زينب بنت جحش ، وهى قرشية (وابنة عمته) تشريعًا للأمة المحمدية فى أمرين :

الأول : أن الكفاءة تكون بالإيمان لا بالنسب ، فهذه من صميم قريش ، وحين أراد أن يزوجها صلى الله عليه وسلم لمولاه زيد بن حارثة امتنعت وامتنع أخوها ، فأنزل الله تعالى قوله الكريم : (وَمَا كان لِمُؤمِنٍ وَلَا مُؤمِنَةٍ إذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُه أمرً أنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أمرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَه فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بِينًا) . فعندئذ قال أخوها لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « مرنى بما شئت » فزوجها لزيد رضى الله عنه ، ويقول الإمام القرطبى : فى هذه الآية دليل بل نص فى أن الكفاءة لا تعتبر فى الأحساب ، وإنما تعتبر فى

الأديان ، وذلك أن الموالى تزوَّجت فى قريش ، تزوج زيد زينب بنت جحش ، وتزوج المِقْدادُ بن الأسْود ضباعة بنت الزبير ، وزوج أبو حذيفة مولاه سالمًا من فاطمة بنت الوليد ، وتزوج بلال أختَ عبد الرحمن بن عوف .

وأذكر فى هذه المناسبة أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدَّم « سالمًا » مولى أبى حذيفة على الصلاة بقباء فكان يؤمهم وفيهم أبو بكر وعمر وغيرهم من قريش ، وأمَّر صلى الله عليه وسلم « زيد بن حارثة » على الجيش ، كما أمَّر عليه ابنه « أسامة بن زيد » على الجيش ، فانظر كيف رفع اللهُ بالإسلام الموالىَ وقدَّمهم فى الزواج وفى القيادة ، وفيهم شيوخ قريش . فما أكرم المؤمنين بالإسلام .

الثانى : أنَّ امرأة الابن بالتبنى ليست محرمة كامرأة ابن الصلب بدليل قوله تعالى : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهُنَّ وطراً وكان أمر الله مفعولا) .

وقد لغط المستشرقون ــ كدأبهم فى الكيد الإسلام ــ فى زواج النبى صلى الله عليه وسلم بالسيدة زينب ، ويقطع ألسنتهم الكاذبة قوله تعالى : (زوجناكها) فوليُّه فى الزواج رب العالمين ، فهو لم يتزوجها لهوى فى نفسه كما يقول هؤلاء السفهاء الذين تعدوا على عصمته وقالوا إنه عشق السيدة زينب ، وكيف يعشقها وهو الذى زوَّجها باختياره لمولاه زيد بن حارثة فلم تكن جديدة عليه ، وقد زوَّجه منها رب العالمين للحكمة الواردة فى الآية ، وتلك الحكمة هى : (لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا) وهى حكمة تشريعية ، فإنهم كانوا يظنون أن الابن بالتبنى تحرم زوجته على من تبناه كما تحرم زوجة الابن من الصلب على أبيه ، ولو صح ما يفترونه حقداً وحسداً من أنه عشقها وتمنى أن يطلقها زيد ليتزوجها من بعده لما قال له : (أمْسِكْ عليك زوجَك واتقِ اللهَ) ، ولقال له : طلِّقها فى الفرصة المواتية له حين شكاها زيد إليه صلى الله عليه وسلم

أما قوله تعالى : (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ، فإنه صلى الله عليه وسلم عَلِم من ربه أنها ، رضى الله عنها ، ستكون زوجة له ، ومع ذلك قال لزيد حين شكا من دلالها عليه (أمسك عليك زوجك واتق الله) وللرسول صلى الله عليه وسلم عذره الشرعى فى ذلك كما سيأتى بعد قليل .

أقول : ولو كان الذى فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمره بإمساكها يعد خطيئة لأمره الله تعالى بالتوبة والاستغفار منه ولكن لم يقع ذلك . فليتق الله أولئك المتخرصون والجاهلون بحرمته وعصمته صلى الله عليه وسلم . ولأن الله تعالى زوّجها لنبيه صلى الله عليه وسلم فقد دخل عليها صلى الله عليه وسلم بغير إذن ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق ، وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وسلم التى لا يشاركه فيها أحد بإجماع المسلمين ، ولهذا كانت رضى الله عنها تفاخر ضَرائرَها وتقول لهن : زوّجكن آباؤكن وزوّجنى الله تعالى . وقد استدل العلماء على ثبوت الولى فى الزواج بقوله تعالى : (زوجناكها) .

وإذا أردت أن تعرف مدى الثقة التى حظى بها « زيد » عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومدى التقوى التى تحلّت بها سيدتنا زينب رضى الله عنها ، فهاك ما حدثنا به الإمام مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه قال :

« لما انقضت عدّة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد : « فاذكرها علىّ » . قال فانطلق زيد حتى أتاها وهى تُخمّر عجينها ، قال فلما رأيتها عظُمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى ، فقلت يا زينب : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئًا حتى أوامر (أى أستخير) ربى ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن . وكانت رضى الله عنها تقول لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأدل عليكَ بثلاث ما من نسائك امرأة تدلّ بهن : إن جدى وجدك واحد ، والله أنكحك إياى من السماء ، وإن السفير فى ذلك جبريل .

وقال العلماء إنها رضى الله عنها لما وَكَلتْ أمرها لله وصدقت فى تفويضها له سبحانه تولى زواجها ولذلك قال : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) ، وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبى صلى الله عليه وسلم (زوّجتُكَها)

أقول : وقد أظهر زيد رضى الله عنه فى نشأته[1] من الوفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما جعله أهلا لثقته الغالية فيه . فقد روى أن عم زيد لقيه يومًا وكان قد ورد مكة فى شغل له ، فقال : ما اسمك ياغلام ؟ قال زيد ، قال : ابن من ؟ قال :

---

(١) وكانت السيدة خديجة اشترته وأهدته لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

ابن حارثة . قال : ابن من ؟ قال : ابن شراحيل الكلبي . قال : فما اسم أمك ؟ قال : سعدى وكنت فى أخوالى طى ، فضمه إلى صدره وأرسل إلى أخيه وقومه فحضروا وأرادوا منه أن يقيم معهم . فقالوا : لمن أنت ؟ قال : لمحمد بن عبد الله . فَأَتَوْه صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله تَفكون العانى وتُطعمون الأسير . جئناك فى ولدنا زيد عبدك فامْنُن علينا وأحسن فى فدائه .

قال : وما ذاك ؟ قالوا : زيد بن حارثة نريد شراءه .

قال : أو غير ذلك ، ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء .

قالوا : لقد زدتنا على النَّصَف (أى أنصفتنا فوق ما نتصور) .

فبعث صلى الله عليه وسلم إلى زيد وقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم . هذا أبى ، وهذا أخى ، وهذا عمى . فقال صلى الله عليه وسلم : فأى صاحب كنت لك ؟ فبكى وقال : لِمَ سَأَلتنى عن ذلك ؟ قال : أُخَيِّرُكَ فإن أحببت أن تلحق بهم فالحق . وإن أردت أن تُقيم فأنا من قد عَرَفْتَ . فقال : ما أختار عليك أحداً . فجذبه عمُّه وقال : يا زيد اخترتَ العبودية على أبيك وعمك . فقال : أى والله العبوديّة عند محمد أحبُّ إلىّ من أن أكون عندكم .

فلما آثر زيد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبيه وقومه، ذهب صلى الله عليه وسلم إلى قريش بالمسجد فقال : اشهدوا أن زيداً ابنى أرثه ويرثنى . وبهذا تبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار يدعى « زيد بن محمد » حتى جاء الإسلام ونزل قوله تعالى (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله . . .) فرجع زيد إلى اسم أبيه حارثة .

وقد بادله رسول الله صلى الله عليه وسلم حُبًّا بحبه حتى كان يقول له : « يا زيد أنت مولاى ومنى وإلىّ وأحب الناس إلىّ » . وكافأه تعالى على فرط حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره سبحانه فى القرآن المجيد باسمه ، فصار اسم زيد قرآنا يتلوه أهل الدنيا فى المحاريب وأهل الجنة كذلك أبداً . كما يتلوه السفرة

الكرام البررة من أهل السموات العُلى .

وقد قلت فى محاضرتى « رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم » التى ألقيتها بنادى التجارة فى ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٨١ (٧ ديسمبر ١٩٦١) :

« وليس من خلق النبى صلى الله عليه وسلم اعتداء على حرمة مؤمن ولا مؤمنة ، ولوكان كما يقولون مال إليها بقلبه وتمنّى أن يطلقها زيد ليتزوجها لما نسب الله إليه الإنعام على زيد فى قوله تعالى : (وإذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ . . .) فقد أنعم حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم على مولاه زيد بنعم كثيرة ، فقد أعتقه وتبناه وأحبه وزوّجه ابنة عمته القرشية ليرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإسلام خسيسة العبودية ويكسر عصبية الجاهلية . وما نال سيدنا زيد كل هذا الإكرام إلا ببركة النبى صلى الله عليه وسلم حين آثره زيد على أبيه وأهله ، وهذا هو الإيمان بعينه ، ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« لا يؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسه التى بين جنبيه » والنفس للإنسان أقرب إليه من الأهل والعشيرة .

وقوله تعالى : (وتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) ، إنما هى كما أفهم تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليست عتاباً ، ولى على ذلك الفهم دليلان :

١ – أنه تعالى استطرد فقال : (فلما قضى زيد منها وطراً زوّجناكها) ، فالله هو الذى زوجه إياها ولم يتزوجها بنفسه صلى الله عليه وسلم ، وحكمة هذا الزواج تشريعية وهى التى بيّنها سبحانه فى قوله الكريم : (لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) وقد كانوا يظنون أن الابن بالتبنى تحرم زوجته على من تبناه كما تحرم زوجة الابن من الصلب على أبيه كما أسلفنا .

٢ – أنه تعالى قال : (مَا كَانَ عَلَى النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ۝ الَّذِينَ

يُبَلِّغُون رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إلا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً) .

وهذه الآية الكريمة أشارت إلى ما كان يخفيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرج فى أن يقول الناس إنه تزوج امرأة زيد وهو ابنه بالتبنى ، فأزال الله عنه هذا الحرج الذى أخفاه فى نفسه بقوله تعالى : (ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له) وكأن الله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : لماذا تتحرج من الزواج بمطلقة ابنك بالتبنى وتحسب حسابًا لما يقوله الناس مع أن ربك زوجك إياها لحكمة تشريعية وهى إحلال الحلال بالزواج من امرأة الابن بالتبنى ، خلافًا لما يظنه قومك من أنها تحرُم كما تحرُم امرأة الابن من الصلب ، ولا مأثم فى الطيبات ، إنما المأثم فى الخبائث ، وأنت من المرسلين الذين يبلغون رسالات ربهم ويخشونه ولا يخشون أحداً سواه .

والذى أخفاه فى نفسه صلى الله عليه وسلم وأشار إليه قوله تعالى : (وتُخفى فى نفسك ما الله مُبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه . . .) هو أن الله تعالى أعلمه بزواجها منه بعد أن يطلقها زيد ، فلما جاءه زيد يشكو إليه شدتها وأنها لا تطيعه ورغب إليه فى أن يطلقها قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمسك عليك زوجك واتق الله » يُريد بذلك ألاّ يذُمها فى خلقها وألا يطلقها . فإن قيل لماذا أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بإمساكها مع علمه بأنها ستطلق ، فالرد على ذلك أنه من القواعد الأصولية المقررة فى الشرع أنّ الحاكم لا يحكم بعلمه ، وقد روى عن أبى بكر رضى الله عنه قال : لو رأيتُ رجلا على حدٍّ من حدود الله ما أخذتُه حتى يشهد على ذلك غيرى . وروى أن امرأة جاءت إلى عمر رضى الله عنه فقالت له : احكم لى على فلان بكذا فإنك تعلم مالى عنده فقال لها : إن أردت أن أشهد لك فنعم ، وأما الحكم فلا . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بيمين وشاهد . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه اشترى فرسًا فجحده البائع فلم يحكم عليه بعلمه وقال : من يشهد لى ، فقام خزيمة فشهد فحكم ، خرّج الحديث أبو داود وغيره .

وأقول بعد ذلك فلو قال له النبى صلى الله عليه وسلم : طلقها ، لكان قد

حكم بطلاقها بما علم من الله ، وليس فى أمره بإمساكها مأثم ، ألا ترى أن الله تعالى يأمر العبد بالإيمان مع علمه بأنه لا يؤمن .

هذا وقد قرأت أخيراً فى حاشية المغفور له الشيخ الباجورى على الجوهرة ما يؤيد وجهة نظرى الدافعة لقولهم إنه صلى الله عليه وسلم رأى زينب فأعجب بها وقال : سبحان مقلب القلوب ، فقد قال الشيخ رحمه الله فى الحاشية ما نصه :

«وما قيل من أنه صلى الله عليه وسلم تعلق قلبُه بها وأخفاه فلا يلتفت إليه وإن جَلَّ ناقلوه ، فإن أدنى الأولياء لا يصدر عنه مثل هذا الأمر ، فما بالك به صلى الله عليه وسلم . أرأيت إلى قول الشيخ رحمه الله « فلا يلتفت إليه وإن جل ناقلوه » وكيف أنه نظر فى المسألة بعين العصمة التى تحلى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يأخذ بالنصوص التى تناقض العصمة وإن علا سندها . وصدق إمامنا على بن أبى طالب فى جوابه حين سأله الحارث الليثى : أتظن أن طلحة والزبير كانا على ضلال ؟ فقال الإمام كرم الله وجهه : يا حار (أى يا حارث على الترخيم) إنه ملبوس عليك ، إن الحق لا يعرف بالرجال فاعرف الحق تعرف أهله .

أقول وأرجو بعد أن أطلت الكلام فى هذه المسألة أن يرى القارئ فيما ذكرته وفيما أرشدت إليه الشرف الذى حلى به الله رسوله صلى الله عليه وسلم فى قصة زواجه بالسيدة زينب فى أول القصة وآخرها ، حيث كانت البداية أن نهى الله أهلها القرشيين عن عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تزويجها لزيد لكسر عصبيته الجاهلية ورفع أخوة الإسلام بقوله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينًا) ، وكانت النهاية أن تولى الله جل جلاله تزويجها بعد طلاقها لرسوله صلى الله عليه وسلم ليُحلّ حلالا ظنوه أنه حرام ، وقالوا تزوج محمد امرأة ابنه ، فأجابهم تعالى بقوله : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليمًا) وبقوله تعالى :

(مَا كَانَ على النبىِّ من حَرَجٍ فِيما فَرَضَ الله لَه سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْل وكَانَ أَمْر اللهِ قَدرًا مَقْدورًا) . فإن تجلى ذلك الشرف للقارئ فى

حلاه وعلاه بالحقائق التى بيناها عن أول القصة ومنتهاها فليقل للمتخرِّصين من المستشرقين أو غيرهم من الجاهلين : موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور .

ثامناً : إن الله تعالى رضى عن موقفهن فى اختيار الله ورسوله والدار الآخرة حين خيَّرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلامة رضاه عنهن هو قوله سبحانه : (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ولا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا) . ولا تنفى دلالة الآية على الرضا قول بعض العلماء إنها منسوخة بالسنة وإن الناسخ لها حديث السيدة عائشة قالت : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له النساء ، وروى الطحاوى عن أم سلمة قالت : ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء من شاء إلا ذات محرم وذلك قوله عز وجل : (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) . وهو كذلك قول الإمام على وابن عباس وعلى بن الحسين والضحاك .

تاسعاً : إن الله تعالى أكرمهن ودفع عنهن الهم والحزن ووفر لهن السرور والرضا فقال تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (ترجى من تشاءُ منهن وتؤوى إليك من تشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ، وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَلِيمًا) . ومع هذا التفويض الواسع الذى أباح له ترك القَسْم ولم يوجبه عليه ، راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم القَسْم بينهن بالعدل ولم يرجح بعضهن على بعض مع أنه تعالى فوَّض له فى ذلك ، فظهر لنسائه فضلُه عليهن فى القَسْم بالسوية بينهن ، ولو كان صلى

الله عليه وسلم استعمل التفويض المعطى له ما تضررت منه واحدة منهن، لأنه كان يستند إلى حكم الله الفعال لما يشاءُ، ولا يفوتهن النزول على حكم الله تعالى والرضا به وقد قال لهن سبحانه: (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفًا خبيرًا).

عاشراً: أن الله تعالى فرض الحجاب بين نسائه صلى الله عليه وسلم وبين المؤمنين على الرغم من أنه تعالى جعلهن أمهات للمؤمنين، وحرم عليهم زواجهن من بعده صلى الله عليه وسلم، وفى ذلك مزيد توقير لهن وتأديب للمؤمنين والمؤمنات فى التربية الاجتماعية، لأنه إذا لم يأذن الله تعالى فى مخالطة أطهر النساء وأتقاهن وأزكاهن، فكيف يخالط المؤمنون غيرهن كما يقع جهلا بأحكام الله، أو استهانة بحدود الله، واقرأ بعد ذلك قول الله تعالى:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ[1] وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُم فَانْتَشِرُوا ولا مُسْتَأْنِسِينَ لِحديثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِى مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً) . ومن ذلك ترى أن الدخول بدون إذن حرام، وجائز من أجل الطعام بإذن، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد التحريم إلى أصله.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: نزلت فى ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبى صلى الله عليه وسلم فيدخلون قبل أن يدرك (ينضج) الطعام فيقعدون إلى أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون. وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها وجماعة:

---

(١) أى منتظرين أن ينضج الطعام، وكان بعض المؤمنين يبكرون وينتظرون طبخ الطعام ونضجه، وكذلك كانوا إذا فرغوا من الأكل جلسوا يتحدثون فى بيته صلى الله عليه وسلم فنهاهم الله عن ذلك ودخل فى النهى سائر المؤمنين.

سببها أن عمر قال : قلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البَرُّ والفاجر فلو أمرتَهن أن يحتجبن فنزلت الآية . ومعنى المتاع فى الآية ما يطلبه المؤمنون فى منافعهم من الأوانى المنزلية أو من فتوى شرعية ، وفى آية الحجاب دليل على أن المرأة كلها عورة ، بدنها وصوتها واستثنوا الوجه والكفين عند الضرورة لأن الغالب ظهورهما عادة وعبادة فى الصلاة والحج[1] كما أن فى الحجاب دليلا على أنه لا ينبغى لأحد من المؤمنين أن يثق بنفسه فى الخلوة بمن لا تحل له ، فجانبة الخلوة أحصن لنفسه وأطهر لقلبه ، وليس أرفع فى التربية من أدب الله تعالى الذى أدَّب به عباده المؤمنين والمؤمنات .

وقد قال إمامنا الشافعى رضى الله عنه : وأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتى مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن ، ومن استحل ذلك كان كافراً لقوله تعالى فى سورة الأحزاب : (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) ،

وقيل إنما منع الله التزوج بأزواجه صلى الله عليه وسلم لأنهن أزواجه فى الجنة ، والمرأة فى الجنة لآخر أزواجها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « زوجاتى فى الدنيا هُنَّ زوجاتى فى الآخرة » وقال صلى الله عليه وسلم : « كل سبب ونسب ينقطع إلا سببى ونسبى فإنه باقٍ إلى يوم القيامة » وهذا الحديث الأخير هو الذى حرص من أجله أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أن يتزوج بالسيدة أم كلثوم (زينب الوسطى) بنت الإمام على ، ولما تزوجها خرج إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : ألا تهنئونى ؟ قالوا : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال تزوجت من أم كلثوم بنت على فصار لى نسب برسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحادى عشر : إن الله تعالى قصر بعد الحجاب رؤيتهن على المحارم فقال تعالى : ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ ولا ما ملكت أَيْمَانُهُنَّ

(١) وأما عورة الرجل فمن السرة إلى الركبة .

واتَّقِينَ اللهَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا) . حيث ظن الآباء والأبناء والأقارب أن آية الحجاب عامة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت الآية مستثنية المحارم ، ولم يذكر الله العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين فى العرف .

الثانى عشر : وإلى جانب المحارم التى ذكرها الله تعالى فى الآية السابقة الخاصة بأزواجه صلى الله عليه وسلم بيَّن الله سبحانه فى سورة النور بقية المحارم وبقية من أبيح لسائر المؤمنات مقابلتهم فقال تعالى : (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلَا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِن وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أو آبائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ[1] أَوْ أَبنائِهِنَّ أو أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أو إخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إخْوَانِهِنَّ أو بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أو نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ[2] مِنَ الرِّجَالِ أو الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ولا يضرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) . وكانت السيدة عائشة رضى الله عنها تقول : رحم الله نساء المهاجرات الأُول ، لما نزل (وليضربن بخمرهن[3] على جيوبهن) شققن أَأْزُرَهن فاختمرن بها . وقد دخلت عليها حفصة بنت أخيها عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهم وقد اختمرت بشيء يشف عن عنقها وما هنالك ، فشقته عليها وقالت : إنما يُضرب بالكثيف الذى يستر ،ومعنى قوله تعالى : (على جيوبهن) أى على صدورهن لأنها كانت مواضع الجيوب فى ثياب السلف رضوان الله عليهم .

---

(١) البعل هو الزوج والسيد .

(٢) أى الذين لاحاجة لهم بالنساء ، والإربة الحاجة والجمع مآرب .

(٣) الخمر جمع الخمار وهو ما تغطى به رأسها (الطرحة) .

وجاء فى تفسير الإمام القرطبي : ذكر القاضى إسماعيل عن الحسن والحسين رضى الله عنهما أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إن رؤيتهما لهن تحل ، قال إسماعيل : أحسب أن الحسن والحسين ذهبا فى ذلك إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا فى الآية التى فى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهو قوله تعالى فى سورة الأحزاب (لا جناح عليهن فى آبائهن إلخ) وذهب ابن عباس إلى آية النور السابقة حيث قال تعالى : (أو أبناء بعولتهن) ، فانظر رعاك الله إلى أى مدى ذهب السبطان فى توقير أزواجه صلى الله عليه وسلم تمسكاً بآية الأحزاب الخاصة بهن والتى لم يرد فيها أبناء بعولتهن .

الثالث عشر : أراد الله سبحانه أن يزيد سيداتنا أمهات المؤمنين ستراً وتوقيراً فأنزل قوله تعالى : (يـٰأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً) والجلباب هو ثوب أكبر من الخمار ويستر جميع البدن . وفى صحيح مسلم عن أم عطية قلت : يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب ؟ قال : لتلبسها أختها من جلبابها . وإرخاء الثوب أن تلويه وتغطى به الصدر ومعظم الوجه .

وسياق الآية الشريفة السابقة يُرينا كيف خَصّ الله بالذكر أزواجه وبناته صلى الله عليه وسلم قبل عامة نساء المؤمنين ، وفى ذلك توقير لا يخفى على ذوى الأفهام . وقد دخلت نسوة من بنى تميم على السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، وعليهن ثياب رقاق فقالت لهن : إن كنتن مؤمنات فليس هذا بلباس المؤمنات وقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا لمنع النساء من الخروج إلى المساجد كما منعت نساء بنى إسرائيل ، تريد بذلك أن تقول إن الزمن تطور والأخلاق تغيرت عما كانت عليه أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت رضى الله عنها تتمثل بقول لبيد الشاعر :

ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم وبَقيت فى خَلْفٍ كجلد الأجرب

ثم تقول رضى الله عنها : كيف لو عاش لبيد إلى زماننا ؟

وكان عبد الله بن الزبير يقول « رحم الله أم المؤمنين حين كانت تتمثل بقول لبيد :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

ثم يُضيف رحمه الله قائلا : كيف لو عاشت أم المؤمنين إلى زماننا ؟ وقد قلت حين قرأت قولها : فماذا نقول نحن اليوم ؟ اللهم أرنا الحق حقًّا فنتبعه والباطل باطلا فنجتنبه .

ويقول الإمام القرطبي فى تفسيره (الذى كتبه فى القرون الوسطى) : وقد قيل إنه يجب السّتر والتقنع الآن فى حق الجميع من الحرائر والإماء ، وهذا كما أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا النساء المساجد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أقول وكان القناع فى الزمن الأول مقصوراً على الحرائر دون الإماء حين كان الرجال والنساء على تقوى من الله . فلضعف التقوى أرادوا التحرز بتقنع الحرائر والإماء درءاً للمفاسد .

الرابع عشر : أن الله تعالى جعلهن محل عنايته فى الصلاة ، فقال تعالى فى سورة طه : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ ، وجاء فى تفسير الإمام ابن كثير أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أصابه خصاصة (حاجة) نادى أهله : « يا أهلاه صلوا صلوا » وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة ، وأضاف ابن كثير رضى الله عنه أن الإمام الترمذى وابن ماجة رويا من حديث عمران بن زائدة عن أبى خالد الوالبى عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله يا ابن آدم تَفَرَّغ لعبادتى أملأ صدرك غِنًى وأسُدَّ فقرك ، وإن لم تفعل ملأتُ صدرك شغلا ولم أسد فقرك » وأخرج أبو داود وابن ماجة عن أبى هريرة رضى الله عنهما قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رحم الله رجلا قام من الليل فصلّى وأيقظ امرأته فإن أبت نضح فى وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلّت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه الماء » .

وقد قال بعض المفسرين إن قوله تعالى (وأمر أهلك) تشمل أهل بيته

وأمته واستدلوا بقوله تعالى فى حق سيدنا إسماعيل عليه السلام: (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيًّا) ولكن الخصوصية واضحة فى أزواجه صلى الله عليه وسلم فقد عبَّرت عنهن بالأهل فى سورة آل عمران حيث قال تعالى : (وإذْ غَدَوْتَ منْ أهْلِكَ تُبَوِّئُ المؤمنين مقاعدَ للقتال والله سميع عليم) ، وواضح فيها أنه خرج من بيته حيث يسكن أهله أى أزواجه رضوان الله عليهن ، وهذا التفسير لا ينافى أن الصلاة فريضة على جميع المؤمنين والمؤمنات بنصوص أخرى .

الفصل الثالث

أم المؤمنين عائشة

قصة الإفك

بمناسبة حديث الإفك يتعرض العلامة عباس العقاد إلى عظم خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتابه « عبقرية محمد » فيقول رحمه الله :

« والمعاملة الطيبة فى الزمن الطويل خلق نادر بين الناس ، ولكنه فى حالة الرضا خلق لا يشق فهمه على كثيرين ،

« إلا أن الخلق الذى يشق فهمه على الأكثرين هو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسها من خطر وهو المساس بالوفاء ، فى هذه الخصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى ، فلا نخالها تحلم بمعاملة أطيب ولا أكرم من المعاملة التى أثرت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قصة عائشة بنت الصديق وهى أحظى نسائه لديه ، ونلخصها مما روته بلسانها إذ تقول رضى الله عنها :

« . . . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه ، وأقرع بيننا فى غزوة (وهى غزوة بنى المصطلق) فخرج فيها سهمى ، ثم قفلنا من الغزوة إلى أن دنونا من المدينة ، فقمت حين آذنوا بالرحيل فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت من شأنى ، وأقبلت إلى الرحل فلمست صدرى فإذا عقدى قد انقطع ، فرجعت ألتمسه فحبسنى ابتغاؤه . . . وأقبل إلى الرهط الذين كانوا [1] يرحلون لى ، فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه . وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يهبلن [2] ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العُلَقَ [3] من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج

---

(١) أى يحملون الرحل على البعير .

(٢) يثقلهن اللحم والشحم .

(٣) بضم ففتح ، وهى مافيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداء .

حين رحلوه ورفعوه إذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن .

« ووجدت عقدى فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مُجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلى .

« فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان [١] بن المعطل السلمى قد عرَّس من وراء الجيش فأدلج [٢] فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فعرفنى حين رآنى واسترجع ، فاستيقظت وخمرت وجهى بجلبابى ، ووالله ما يكلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته وركبتها وانطلق يقودها حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا فى نحر الظهيرة [٣] .

« فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كِبْره [٤] عبد الله بن أبىّ ابن سلول .

« واشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً والناس يُفيضون فى قول أهل الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك .

« ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذلك يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نَقهت ، وخرجتْ معى أم مسطح قبل المناصع [٥] .

« ثم عدنا فعثرت أم مسطح فى مِرْطها [٦] فقالت تَعِس مسطح .

« قلتُ : بئس ما قلتِ . أتسبين رجلاً شَهِد بدراً ؟

« قالت : أى هنتاه [٧] ، أوَ لمْ تسمعى ما قال ؟

---

(١) وقد جاء فيما رواه بسنده الإمام الطبرى أن السيدة عائشة كانت تقول : لقد سئل عن صفوان فوجدوه رجلا حصوراً مايأتى النساء وقتل شهيداً رضى الله عنه .

(٢) سار آخر الليل .

(٣) أى فى شدة الحر .

(٤) الكبر بالضم والكسر ، الإثم .

(٥) أماكن فى الخلاء يقضى فيها الناس حاجتهم إذ كان العرب يكرهون اتخاذ الكنف فى بيوتهم ويستقذرونها بخلاف العجم فإنهم كانوا يتخذونها فى بيوتهم .

(٦) أى الكساء .

(٧) تنعى عليها طيبتها وعدم معرفتها بما كان منه فى حقها .

« قلتُ : وماذا قال ؟

« فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددت مرضًا إلى مرضى ، فلما رجعتُ إلى بيتى دخل علىّ رسول الله فسلم ثم قال : كيف تيكم ؟ واستأذنتُ أن آتى أبوىّ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لى .

« قالت أمى : يابنية هوِّنى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلاّ كثّرن عليها .

« قلت : سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم .

« ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وأسامة بن زيد يستشيرهما فى فراق أهله ، فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود ، وقال لرسول الله : هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً .

« وأما على بن أبى طالب فقال : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصْدُقك .

« فدعا رسول الله "بَريرَة" يسألها : هل رأيت من شىء يريبك من عائشة ، قالت : والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قد أغمضه [1] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الدواجن [2] فتأكله .

وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلتى المقبلة لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى .

« فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس وتشهّد ثم قال : أما بعد يا عائشة ، فإنّى قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنتِ ألممتِ بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه .

---

(١) أى أعيبه .

(٢) الحيوان الذى يألف البيت كالغنم والدجاج .

« فلما قضى رسول الله مقالته قلص[١] دمعى حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبى : أجب عنى رسولَ الله ، فقال : والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله .

« فقلت لأمى : أجيبى عنى ، فقالت كذلك ، والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله .

قلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن : إنى والله لقد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدَّقتم به ، فإن قلتُ لكم : إنى بريئة ، والله يعلم أنى بريئة، لا تُصدِّقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أنى بريئة ، لتصدقوننى ، وإنى والله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف[٢] :

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) .

« ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، فو الله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجُمان[٣] فى اليوم الشاتى .

« فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى ياعائشة ، أما الله فقد برَّأك .

« قالت لى أمى : قومى إليه .

« قلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ، هو الذى أنزل براءتى .

وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره ، فأقسم لا ينفق عليه شيئًا أبدًا ، فأنزل الله عز وجل : (ولا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

---

(١) قلص وتقلص ارتفع وانزوى وجف .

(٢) قالت رضى الله عنها فيما رواه الطبرى : التمست اسم يعقوب فما أذكره وهو مايدل على مدى تأثرها بما شاع كذباً عنها ، شأن كل حرة كريمة عفيفة .

(٣) أى الدر .

فقال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ورجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفقها عليه .

المنافقون والإفك :

والذى أشاع الفاحشة ونشرها حقداً وحسداً على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رأس المنافقين عبد الله بن أبىّ بن سلول لعنه الله فى الدنيا والآخرة ، وهو الذى رأى صفوان [1] آخذاً بزمام الناقة التى ركبتها أم المؤمنين فقال إفكاً وبهتاناً : والله ما نَجَتْ منه ولا نجا منها .

وروى الإمام الطبرى بسنده عن ابن إسحق عن بعض رجال من بنى النجار : أن أبا أيوب الأنصارى رضى الله عنه قالت له امرأته : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة ؟ قال بلى وذلك الكذب . أكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك ؟ قالت لا والله ما كنت لأفعله . قال فعائشة والله خير منك .

فانظر الفرق الشاسع بين مسلك المنافق عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين الذى تولى إشاعة الفاحشة عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبين مسلك الصحابى الأنصارى الخزرجى أبى أيوب رضى الله عنه وعن سائر الصحابة المكرمين .

القرآن الكريم والبراءة :

وما أروع كلامها رضى الله عنها فى التحدث بنعمة الله التى جاءتها من السماء فى براءتها حين قالت فيما رواه الطبرى فى تاريخه :

« وايم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأناً من أن ينزل الله عز وجل فىَّ قرآنًا يُقرأ به فى المساجد ويصلى به ، ولكنى كنتُ أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه شيئًا يُكَذِّبُ الله به عنى لما يعلم من براءتى أو يُخْبَرُ خبراً . فأما قرآن ينزل فىّ . فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك » .

---

(١) كان صفوان رضى الله عنه من خيار الصحابة الكرام ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته .

سورة النور والبراءة :

وما أبدع ما قاله الله تعالى فى سورة النور فى تبرئتها مما لاكته الألسن زوراً وبهتاناً فى قصة الإفك (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ) .

وقد تُؤثِّر الإشاعة الكاذبة فى بعض المؤمنين لانه تعالى يقول : (وفيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) وإذا شك أحد المؤمنين فى مسلك الزوجة الأثيرة ، فإنه يؤذى نفسه ويؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث لا يشعر ، لأن عِرْضه الشريف مرتبط بِعِرْض نسائه الطاهرات ، ولذلك أنَّب الله المؤمنين الذين تأثروا بالإشاعة وأسهموا فيها ،

فقال تعالى فى سورة النور : (إن الذين جاءُوا بالإفك عصبةٌ منكم لَا تَحسَبوه شرًّا لكم ، بل هو خير لكم لكل امرئٍ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كِبْرَهُ منهم له عذاب عظيم * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمناتُ بأنفسهم خيرًا وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءُوا عليه بأربعةِ شهداء فإذ لم يأتوا بالشُّهداءِ فأُولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمَسَّكم فى ما أفضْتُم فيه عذابٌ عظيم * إذ تَلقوْنه بألسِنتكم وتقولون بأفواهِكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيِّنًا وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكونُ لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتانٌ عظيم * يعظكم الله أن تعُودوا لِمِثْلِهِ أبدًا إنْ كنتُم مؤمنين * ويبين الله لكم الآياتِ والله عليم حكيم * إنَّ الذين يُحبّون

أن تشيعَ الفاحشةُ فى الذين آمنوا لَهُمْ عذابٌ أَليمٌ فى الدنيا والآخرة واللهُ يعلم وأَنتم لا تعلمون * ولولا فضل الله عليكم ورحمتُه وأَنَّ اللهَ رءُوف رحيم * يأَيها الذين آمنوا لا تَتَّبِعوا خُطُواتِ الشيطانِ ومنْ يتبعْ خُطُواتِ الشيطانِ فإِنَّه يأْمرُ بالفحشاءِ والمنكرِ ولو لا فضْلُ اللهِ عليكم ورحمته مَا زَكىَ منكم من أَحدٍ أَبدًا ، ولكنَّ اللهَ يُزَكِّى من يشاءُ واللهُ سميعٌ عليم * ولا يَأْتَلِ أُولو الفَضْلِ منكم والسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِى القُرْبى والمساكِينَ والمهاجرينَ فى سبيل الله ولْيَعْفوا ولْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبّونَ أَن يغفر اللهُ لكم واللهُ غفور رَّحيم * إن الذين يرمون المُحْصَناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ لُعِنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيمٌ * يومَ تشهدُ عليهِمْ أَلسنَتُهم وأَيديهم وأَرجُلُهم بما كانوا يَعْملون * يومئذٍ يُوَفِّيهم اللهُ دينَهمُ الحقَ ويعلمون أَنَّ اللهَ هو الحقُّ المبينُ * الخبيثاتُ للخَبيثينَ والخَبيثُون للخَبيثاتِ والطيِّباتُ للطيِّبين والطيِّبونَ للطيِّباتِ أُولئك مُبرَّءُونَ مما يقولونَ لهم مغفرةٌ وَرِزْقٌ كَرِيم) .

براءة صفوان وكرامة أم المؤمنين :

وفى قوله تعالى : (أولئك مُبرَّأون مما يقولون) شمول لبراءة السيدة أم المؤمنين وصفوان . ويقول الإمام القرطبى فى تفسيره : قال بعض أهل التحقيق : إن يوسف عليه السلام لما رُمِىَ بالفاحشة برَّأه الله على لسان صبى فى المهد . وإنّ مريم لما رُميت بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى عليه السلام . وإن عائشة لما رميت بالفاحشة برأها الله تعالى بالقرآن . فما رَضِىَ لها ببراءة صبى ولا نبى حتى برَّأها الله بكلامه من القذف والبهتان . وهذا الذى يقول به أهل التحقيق يدلنا على المكانة السامية التى لأم المؤمنين عند الله تعالى . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

إقامة الحد :

وقد روى أبو داود عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزل عُذْرى قام النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضُربوا حدهم ، وسماهم : حسَّان بن ثابت ومِسْطَح بن أثاثة وحَمنة بنت جحش ، وفى كتاب الطحاوى : ثمانين ثمانين. والحد الذى أقيم على هؤلاء المسلمين يُظهر كَذِبَ القاذف وبراءةَ المقذوفة كما قال تعالى : (لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الكَاذِبُونَ) . وكذلك يكفِّر الحدُّ عن المحدودين ما صدر عنهم من القَذْفِ رجمًا بالغيب حتى لا يبقى عليهم تبعة منه يوم القيامة لأنه صلى الله عليه وسلم قال فى الحدود : « إنها كفارةٌ لمن أقيمت عليه » .

جزاء السب :

وقد روى الإمام القرطبى عن هشام بن عمَّار قال : سمعت مالكًا يقول : من سب أبا بكر وعمر أُدِّب ، ومن سب عائشةَ قُتِل لأن الله تعالى يقول : (يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فمن سب عائشة فقد خالف القرآن ، ويؤيد الإمام القرطبى رأى الإمام مالك فيقول : إنَّ أهلَ الإفكِ رَمَوا عائشة المطهرة بالفاحشة فبَرَّأها الله تعالى ، فكل من سبها بما بَرَّأها الله منهُ مكذِّب لله ، ومن كذّب اللهَ فهو كافر .

تعقيب العلامة العقاد :

ويقول العلامة العقاد فى تعقيبه على القصة :

« تلك هى القصة التى عرفت بقصة الإفك كما روتها لنا السيدة عائشة رضى الله عنها . وهى مسبار[1] صادق يسبر لنا أغوار المروءة والرفق فى معاملة النبى لزوجاته حيث لا رفق ولا مروءة عند الأكثرين ، فليس النبى هنا فى حالة من حالات الرضا التى تسلس الطباع ولا تستغرب معها المودة وطول الأناة ، ولكنه فى حالة من تلك الحالات التى تثير الحميّة وتثير الحب وتثير النقمة وتثير فى النفس

---

(١) مقياس .

البشرية كل ساكنة تدعو إلى طيب المعاملة ، فلم يكن فى هذه الحالة إلا كرمًا خالصاً بما سلك فى أمر نفسه وفى أمر أهله وفى أمر دينه، ولم يدع لحالم من حالمى الحضارة الحديثة مُرتقى يتطلع إليه فى جميع هذه الغايات .

« سمع النبى حديثا يلاك بين المنافقين ويسرى إلى المسلمين . . .

« سمع النبى ذلك الحديث المريب فلم يقبله بغير بينة ولم يرفضه بغير بينة ، وكان عليه أن يعود زوجه المريضة أو يجفوها إلى حين ، فعادها وبه من الرفق والإنصاف ما يأبى عليه أن يفاتحها فى مرضها بما يخامر نفسه الكريمة » .

طهارة جميع الأزواج :

والآيات الكريمة التى نزلت فى قصة الإفك الخاص بالسيدة عائشة تمتد إلى سائر أزواجه الطاهرات لأن الله تعالى يقول : (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فى الدُّنْيَا والآخرة ولَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ) . وقد قال ابن عباس والضحاك وغيرهما هى فى السيدة عائشة وسائر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم .

أقول : وهذه بركة من بركات أُمّنا السيدة عائشة على زميلاتها أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن . وفى ذلك أيضًا من التكريم لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لايخفى ، وإذا كان الله تعالى قد أنزل سيداتنا أمهات المؤمنين منازل الكرامة والحرْمة ، فلا يليق بمؤمن أن يطلق لسانه فيهنّ بالنقد جَهْلاً بحرمتهن تحت ستار بحث علمى أو تاريخى أو تشيع للإمام علىّ حتى لا يتعرض للعنة الله فى الدنيا ، ثم للعذاب العظيم فى الآخرة . وسترى بعد قليل أن الإمام قد حفظ للسيدة أم المؤمنين عائشة حُرْمتَها وصان لها كرامتها وردّها إلى المدينة معززة مكرمة ، كما سنراها داعية له بالجنة حين كشفت النساء المصاحبات لها عن وجوههن .

والأولياء ليسوا معصومين عصمة الأنبياء ، ولكنهم محفوظون بحفظ الله للأتقياء ، ومن هنا كانت نفوسهم لوّامة ورجاعة إلى الحق : فلا تأخذهم العزة بالخطأ . وإن وقع منهم عن تأويل واجتهاد فى الرأى ، ولا تكمن فى قلوبهم ضغينة عن سبب

قام ومضى لحاله . ولهذا لامت أم المؤمنين نفسها فى موقفها من معركة الجمل وودّت أن لو كانت ماتت قبلها بعشرين عامًا : كما لامت ابن عمر رضى الله عنهما على أنه لم يمنعها من الخروج للعراق . وإذا كانت قد رجعت على نفسها باللوم والندم فقد حكمت على موقفها وأعفت غيرها من الحكم لها أو عليها . وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

ولا تنس أنه تعالى كان كشف الغيب لنبيه صلى الله عليه وسلم حين قال لنسائه : أيتكن صاحبة الجمل الأدحب تَنْبَحُها كلابُ الحَوْأَب ، ثم نظر إلى السيدة عائشة وقال : أخشى أن تكونيها يا حُمَيْراء ، وقد همّت بالرجوع من الطريق حين نبحتها كلابُ الحوأب وتذكرت هذا الحديث الشريف إلا أنهم خدعوها بشهادة زور بأنهم خلّفوا الحوأب وراءهم وكانت تلك أول شهادة زور فى الإسلام .

السيدة عائشة ومعركة الجمل :

كان خروج السيدة عائشة رضى الله عنها إلى العراق للإصلاح بين الطائفتين باعتبارها أم المؤمنين جميعاً ، ولأنه تعالى يقول حاضًا على الإصلاح بين المتخاصمين : (وإنْ طائِفَتانِ مِنَ المُؤمِنِينَ اقْتَتَلُوا فأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) . ولكن شاء الله أن يقع القتال المرير فى معركة الجمل بين الفريقين على غير ما أرادوا جميعاً . وغلب المقدور على تقديرهم ، فندمت أم المؤمنين على خروجها إلى البصرة أشد الندم وقالت فى نَدَمِها : «ليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين عاماً» . ولأن بعض الكتاب ربطوا بين قصة الإفْك وبين موقف أم المؤمنين من الإمام على ؛ نقول :

« ذكر الثعلبى وغيره أنها رضى الله عنها كانت إذا قرأت قوله تعالى (وقَرْن فى بيوتكن) تبكى حتى تبل خمارها . ولا تعجب أن يكون منها ذلك وهى الصديقة بنت الصديق التى نزلت براءتها فى كتاب الله الكريم وصارت متلوة فى المحاريب على ألسنة الصفوة الأبرار من عباد الله المتقين .

حملة الجمل والمشاركة فى الحكم :

ويرى العلامة العقاد فى كتابه « الصديقة بنت الصديق » أنّ حملة الجمل إنما كان المقصود منها مشاركة الإمام فى الحكم ؛ فيقول :

« ويبدو لنا من جملة الوقائع أن حملة الجمل كانت حملة اندفاع ، ولم تكن حملة تدبير وتقدير ، ولا كان أحد من دعاتها يملك زمامها ويتجه به إلى مصير معروف ، وإلا فما يكون ذلك المصير ، إنّ أصحابها لم يريدوا بها أن يفسدوا الأمر على الإمام علىّ ليُصْلِحُوه لمعاوية ، فليس فيهم زعيم من حزبه والعاملين لدولته ،

« ولم يتفقوا على ولايةِ واحد منهم بعد هزيمة الإمام إن تمت هذه الهزيمة ، وليست هى بالمركب الذلول ،

« إنما هى حملة تهويل إلى المقاسمة فى الأمر على وجه من الوجوه التى أشاروا إليها قبل مفارقتهم المدينة ، فيتولى بعضهم العراق وبعضهم اليمن ويصبح الأمر شركة أو « شورى » بينهم وبين الخليفة على قولهم الذى عبروا به عن طلب الولاية فى بعض الأحاديث بينهم وبينه ،

« وفهم الحملة كلها على هذا الوجه أقرب ما نراه لفهم السيدة عائشة فى موقفها من القتال ومن السياسة العامة على الإجمال .

« . . . فمن تمهيد الحوادث الماضية أن طلحة والزبير وعليًّا لم يكونوا غرباء عن السيدة عائشة ، ولم تكن هى غريبة عنهم بميولها وسوابق شعورها ،

« فطلحة من بنى عمومتها ومن بنى تيم قبيلتها وقبيلة الخليفة الأول أبيها ،

« والزبير زوج أختها أسماء ، وابنه عبد الله ابنها الذى اختارته لكنيتها فى بعض الروايات ، فكانت تُكَنَّى من أجله بأم عبد الله ،

« وعلىّ أقرب الناس إلى بيت النبى وزوج ابنته وأبو حفيديه (سبطيه) وصاحب الرأى الذى لا ينسى فى حديث الإفك وهو نصيحته للنبى بتطليقها .

« . . . ثم ها هى ذى مسألة الخلافة والترشيح لها من بين عظماء الصحابة

الذين بقوا على قيد الحياة بعد موت أبى بكر وعمر وعثمان ومن هؤلاء الصحابة علىّ وطلحة والزبير ، وكلهم قد ندبوا للاجتماع فى بيت عائشة لاختيار واحد منهم للخلافة وقال لهم عمر يومئذ :

« إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، وإنى لا أخاف عليكم إن استقمتم ، ولكن ما أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة فشاوروا واختاروا رجلا منكم ،

« وكان جائزاً أن يقع الاختيار فى بيت عائشة على طلحة أو الزبير لأنهما وكيلان من وكلاء الشورى ،

« ثم انقضت خلافة عثمان وتجددت المسألة كرة أخرى على النحو الذى شهدت عائشة قديماً فى بيتها ، فمع مَنْ يكون شعورها ،

« إن طلحة والزبير مرشحان للخلافة منذ اثنتى عشرة سنة ، وقد تكرر اختيار الخليفة من غير بنى هاشم حتى أصبح فى رأى بعضهم كالعرف الذى يجرى عليه التقليد . . .

« فإذا كانت السيدة عائشة أميل إلى فريق طلحة والزبير بشعورها وسابقة رجائها ، فليس ذلك بغريب ولا بمخالف للمعهود فى طبائع الناس » .

نصيحة ابن عمر :

وقد نصح ابن عمر لنفسه ولطلحة والزبير فى الوقت المناسب أكثر من مرة ، وكانت نصيحته خالصة لله وواضحة بينة ، ولكن غلب قضاء الله وكان ما كان ، وقد جاء فى كتاب « الإمامة والسياسة » لابن قتيبة ما يلى :

لما اجتمعت كلمة القوم على المسير إلى العراق قال طلحة للزبير : إنه ليس شىء أنفع ولا أبلغ من استمالة أهواء الناس من أن نشخص لعبد الله بن عمر ، فأتياه فقالا :

«يا أبا عبد الرحمن ، إن أمَّنا عائشة قد خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين

الناس ، فاشخص معنا ، فإن لك بها أسوة ، فإن بايعنا الناس فأنت أحق بها ،

فقال ابن عمر : أيها الشيخان ، أتريدان أن تُخْرِجانى من بيتى ثم تلقيانى بين مخالب ابن أبى طالب ،

« إن الناس إنما يُخدعون بالدينار والدرهم ، وإنى قد تركت هذا الأمر عياناً فى عافية أنالها ، فانصرفا عنه .

ثم غدا مروان إلى طلحة والزبير فقال لهما : عاودا ابن عمر فلعله يُنيب فعاوداه ، فتكلم طلحة فقال :

« يا أبا عبد الرحمن ، إنه والله لربَّ حق ضيعناه وتركناه ، فلما حضر العذر قضينا بالحق ، وأخذنا بالحظ ، إن علياً يرى إنقاذ بيعته ، وإن معاوية لا يرى أن يبايع له ، وإنا نرى أن نردها شورى ، فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور وإلا فهى الهلكة » .

فقال ابن عمر ، وما أبدع ما قال رضى الله عنه :

« إن يكن قولكما حقاً ففضلا ضيعتُ ، وإن يكن باطلا فشرٌّ نجوت منه ، واعلما أنَّ بيتَ عائشة خير لها من هودجها ، وأنها المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف ، ولن يقاتل عليا إلاَّ من كان خيراً منه » .

« وأما الشورى فقد والله كانت فقُدِّمَ وأُخِّرتما ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فاكفيانى أنفسكما » .

فهل ترى نصيحة أصدق من نصيحة ذلك التقى الورع الذى حج فى حياته المباركة ستين حجة واعتمر ألف عمرة ، ولكن ماذا تجدى النصيحة إذا حمَّ القضاء وشاء الله ما كان .

وجهة نظرى :

أقول : ومن عجيب أن بعض المؤرخين تأثروا بما يقول غلاة الشيعة ، أو بما يكون فى طباع البشر ، عادة وربطوا بين موقف إمامنا على بن أبى طالب من حديث الإفك وبين موقف سيدتنا عائشة فى معركة الجمل حين خرجت رضى الله عنها مع

طلحة والزبير ، تريد أن تصلح بين الفريقين ، كما طلبوا إليها ، وقال هؤلاء بغير حق إن الإمام حين استشاره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : والنساء سواها كثير — بقيت مرارةُ قوله هذا فى نفسها فانضمت إلى معسكر خصومه فى معركة الجمل، وهذا القول يجافى الحقائق الثابتة التى تناقض قولهم ، وهذه الحقائق هى :

أن الإمام رضى الله عنه نادى الزبير وكلمه قبل أن تبدأ معركة الجمل وذكّره بما كان قاله له رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى بياضة حين رآه يُسلم على الإمام ويعانقه فقال له صلى الله عليه وسلم : « أتحبه ؟ قال الزبير كيف لا أحبه وهو أخى وابن خالى ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنك ستقاتله وأنت ظالم له » ،

فلما ذكّره الإمام بمقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الزبير رضى الله عنه للإمام كرم الله وجهه : لقد أذكرتنى ما أنسانيه الدهر ، أما إنى لو ذكرتُها ما خرجت ،

وعندما خرج الزبير من المعركة قال له ابنه عبد الله : ياأبتِ تعيّرنا نساء قريش ، قال له أبوه : يا بنى لقد أذكرنى ما أنسانيه الدهر ، يا بنى العارُ ولا النار ، ثم قال الزبير شعراً :

اخترت عاراً على نار مؤججةٍ ... ما إن يقوم لها خَلْقٌ من الطين
نادى علىّ بأمر لست أجهله ... عار لعمرك فى الدنيا وفى الدين
فقلت حسبك من عذلٍ أبا حسن ... فبعض هذا الذى قد قلت يكفينى

ولا غرابة أن يرجع الزبير إلى الحق ، فإنه قال للسيدة عائشة يومًا : ما كنتُ فى موطن منذ عَقَلْتُ إلا وأنا أعرف فيه أمرى غيرَ موطنى هذا ، قالت : ما تريد أن تصنع ، قال : أريد أن أدَعَهم وأذهب .

وكذلك أقنع الإمامُ طلحةَ رضى الله عنه وكان فيما قاله له : إنك أول من بايعنى ثم نكث ، فخرج طلحة من المعركة ، فرماه مروان فقتله مع أنه حليفه ، وذلك بحجة أنه كان يؤلب الناس على عثمان ، وقال مروان حين رمى طلحة خرج الزبير ويخرج طلحة ، وقد قال طلحة — قبل أن يلفظ روحه — لرجل بجواره ،

من أى الفريقين أنت؟ فقال الرجل من فريق أمير المؤمنين علىّ ، فقال طلحة : أبلغه أنى مبايعه ، فلما بلغ قوله أميرَ المؤمنين قال: أبى اللهُ أن يدخل طلحة الجنةَ إلا وبيعتى فى عنقه ، ثم نفض التراب على وجه طلحة وقال له: أعْزِزْ علىّ بأن أراك مُجندَلاً تحت السماء أبا محمد .

ومع أن الإمام انتصر فى المعركة ، إلا أنه كان شديدَ التألم لما وقع ، حتى ، إنه كان يقول : وددت لو أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين عامًا ، كما كان يقول : لو عرفت أن الأمر يبلغ بنا ما بلغ ما دخلتُ فيه . كما أن الإمام حين رأى محمد ابن طلحة بين القتلى تألم لقتله وقال : رحمك الله يا محمد لقد كنتَ فى العبادة مجتهداً آناء الليل قوّامًا وفى الحرور صوّامًا ، ثم نظر إلى مَنْ حوله فقال : هذا رجل قتله بر أبيه [1] .

وشاء الله — برغم خروج طلحة والزبير من المعركة — أن يلتحم الجيشان التحامًا شديداً على غير ما أراده الإمام وطلحة والزبير وأم المؤمنين، فقد كاد الصلح أن يتم بين الزعماء لولا أن الدهماء من الجانبين تراموا فقام القتال فجمحت الفتنة واستعصت على الرؤساء فاشتد القتال وقُتل من الفريقين قرابة عشرين ألفًا، وانتهت معركة الجمل لصالح أمير المؤمنين ، ولما عُقِرَ الجملُ الذى كانت تركبه سيدتنا عائشة قالت أم المؤمنين عائشة لأمير المؤمنين : يا ابن أبى طالب : ملكت فأسْجِحْ [2] ، فقال : غفر الله لك ، فقالت : وغفر لك .

وجاء فى تفسير الإمام القرطبى لسورة الحجرات : إن الأمر بين الطرفين كان قد انتظم وتم الصلح والتفرق على الرضا . فخاف قتلة عثمان رضى الله عنه من التمكن منهم والإحاطة بهم ، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا ، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفرّقوا فريقين، ويبدءوا بالحرب سحرة [3] فى العَسْكَرَيْن ، وتختلف السهام بينهم ويصيح الفريق الذى فى عسكر علىّ : غدرَ طلحةُ والزبيرُ، والفريق الذى فى عسكر طلحة والزبير : غدر علىّ، فتم لهم ذلك على ما دبروه ونشبت الحرب.

ثم أرسل الإمام سيدَتنا عائشة رضى الله عنها معززةً مكرمة إلى المدينة ،

---

(١) كتاب الإمامة والسياسة .

(٢) أعف .

(٣) وقت السحر .

وكان ذلك الإعزاز مثار سخط من الخوارج على أمير المؤمنين ، حتى إنه حين سار ابن عباس رضى الله عنه لجدالهم فى خروجهم على الإمام، أثاروا فيما أثاروا من اعتراضات على الإمام إفراجه عن أم المؤمنين عائشة بعد أن وقعت أسيرة فى يد جيشه ، فقال لهم ابن عباس وهو يحاجهم: تؤمنون بالقرآن ؟ قالوا : نعم ، قال : إن القرآن فرض أمومة أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، ومنهن السيدة عائشة ، فهل كان يجوز للإمام أن يأسر أمه ؟

واقتنع الأكثرون من الخوارج بما قاله ابن عباس فى هذه المسألة وغيرها وكانوا عشرين ألفًا وانصرفوا ، أما القلائل الذين لم يرشدوا وكانوا أربعة آلاف فقد حاربهم الإمام وتغلب عليهم فى معركة النهروان وقتل أكثرهم كما هو معروف .

والدليل القاطع على أن أم المؤمنين أرادت بخروجها الإصلاح بين الناس، ورد صريحًا فى جوابها على رسالة بعثت بها إليها أم المؤمنين سيدتنا أم سلمة رضى الله عنها ، وقد وصلتها تلك الرسالة فى الطريق وهى سائرة إلى البصرة ونصها :

يا عائشة . إنك سدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أمته ، حجابُك مضروب على حرمته . وقد جمع القرآن ذيلك فلا تنلحيه ، وَسُكِّنَ عقيراك فلا تصحريهما [1] . اللهَ من وراء هذه الأمة . قد علم رسول الله مكانك لو أراد أن يعهد إليك .

« ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو عارضك بأطراف الفلوات ناصةً قلُوصك [2] ، قعوداً من منهل إلى منهل ؟

« إن بعين الله مثواك ، وعلى رسول الله تعرضين .

« ولو أُمِرْتُ بدخول الفردوس لاستحييت أن ألقى محمداً هاتكةً حجاباً جعله الله علىّ » . فكتبت إليها السيدة عائشة رضى الله عنها تقول :

« ما أقبلنى لوعظك ، وأعلمنى بنصحك؛ وليس مسيرى على ما تظنين، ولنعم المطلع مطلع أصلحت فيه بين فئتين متناحرتين»[3] . ولا شك أن أم المؤمنين فى

(١) أى إن الله ألزمك أن تبقى فى البيت .
(٢) سائرة بناقتك .
(٣) العقد الفريد والإمامة والسياسة .

تقواها لا تقول إلا حقًّا فيما أجابت به .

ثم إنها همت بالرجوع من الطريق لولا شهادة زور شهد بها بعض الأعراب ، فقد روى الطبرى وابن قتيبة أن السيدة عائشة سمعت فى طريقها إلى البصرة نباحَ كلابٍ فقالت : أى ماءٍ هذا ؟ فقالوا : الحَوأبْ .

فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إنى لَهِيَه [1] وما أرانى إلا راجعة .

قالوا : ولم ؟

قالت : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنسائه : كأنى بإحداكن قد نَبَحَتْها كلابُ الحوأب ، وإياك أن تكونى أنتِ يا حميراء [2] .

فأتوا لها ببعض أعراب شهدوا زوراً أن المكان ليس هو الحوأب وكانت بكل أسف هذه أول شهادة زور وقعت فى الإسلام ، فسارت رضى الله عنها معهم مكذوبة مخدوعة .

فما كانت أم المؤمنين تتوقع أن يغلب قضاءُ الله ويقع القتال المرير بين بنيها المؤمنين من الفريقين ، ولقد قال الزبير حين رأى الغوغاء تحرش بين الناس وتفتح بينهم طرقاً إلى الالتحام : « ما كنت [3] أرى أن مثل ما جئنا له يكون فيه قتال » .

ولم يربط الإمام على كرم الله وجهه موقف أم المؤمنين منه فى معركة الجمل بموقفه منها فى حديث الإفك، وهو فى ذلك الوقت كان أقدر من غيره على تحليل الموقف من أهل زمانه، وممن جاءوا بعدهم من باب أولى ، وإليك كتابه إليها وجوابها عليه ، منقولا من كتاب السياسة والإمامة لابن قتيبة :

كتب أمير المؤمنين لسيدتنا عائشة يقول قبل أن يقع قتال :

« أما بعد فإنك خرجت عاصية لله ولرسوله ، تطلبين أمراً كان عنك موضوعًا ، ما بال النساء والحرب ، والإصلاح بين الناس .

« تطالبين بدم عثمان ، ولعمرى لَمَن عرَّضك للبلاء ، وحملكِ على المعصية

---

(١) إنى المقصودة بما قاله النبى صلى الله عليه وسلم عن نبح كلاب الحوأب .

(٢) لقبه صلى الله عليه وسلم لسيدتنا عائشة رضى الله عنها .

(٣) كتاب البيان والتبيين .

أعظم إليك ذنبًا من قتل عثمان ، وما غضبت حتى أغضبت ، وما هِجْتِ حتى هُيجت ، فاتق الله وارجعى إلى بيتك .

فأجابته فى إيجاز قائلة رضى الله عنها : جل الأمر عن العتاب .

وأرسل إليها أمير المؤمنين بعد ذلك ابن عمه عبد الله بن عباس يقول لها : ... إن جماعة قد أغروك فخرجت من بيتك فوقع الناس لاتفاقك معهم فى البلاء والعناء ، وخير لك أن تعودى إلى بيتك ، ولا تحومى حول الخصام والقتال ، وإن لم تعودى ولم تطفئى هذه الثائرة ، فإنها سوف تعقب القتال ويقتل فيها كثير ، فاتق الله يا عائشة ، وتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة من عباده ويعفو ، وإياك أن يدفعك حب عبد الله بن الزبير وقرابة طلحة إلى أمر يعقبه النار .

فلما بلَّغها ابن عباس رسالة الإمام قالت رضى الله عنها : إنى لا أرد على ابن أبى طالب لأنى لا أبلُغُه فى الحِجَاج .

فانظر ، كيف أرجع أمير المؤمنين موقفها فى الرسالة الأخيرة إلى حب ابن أختها عبد الله بن الزبير والتحيز إلى ابن عمها طلحة بن عبيد الله ، وانظر كيف كان تصويرها للإمام فى قوة حجته وكأنما صدقته فيما قال ولم تدفع حجته بحجة معارضة ، وكيف تجحد فضله وقد قالت فى حقه : إن كان ما علمت صوَّامًا قوَّامًا ، وذلك حين سُئلت : أى الناس أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : فاطمة ، فقيل لها : ومن الرجال ؟ قالت : زوجها إن كان ما علمت صوَّامًا قوَّامًا .

كما أنها وهى خارجة من البصرة قالت : أيها الناس لم يكن بينى وبين علىّ فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها (أهل الزوج) فلم تكن الخصومة إذن عندها بسبب رأى الإمام فى قصة الإفك ، وإنما هى كراهة فطرية معتادة تكون بين المرأة وأهل زوجها ، والإمام كرم الله وجهه أثبت قيام تلك الكراهة ، ولم ينكرها أو يردها لموقفه منها فى حديث الإفك ، فقد قال فى إحدى خطبه كما رواها ابن أبى حديد فى شرح نهج البلاغة « أما فلانة فقد أدركها ضعف النساء وضغن غَلاَ فى صدرها كمرجل القين ، ولو دعيت لتنال من غيرى ما أتت إلىّ لم

تفعل ، ولها بعد حرمتها الأولى والحساب على الله ، والله يعفو عمن يشاء ويعذب من يشاء » ، ولا يفوتنك أن تذكر للأمام أدبه العالى فى قوله : ولها بعد حرمتها الأولى ، وفى قوله « فلانة » دون تصريح باسمها صيانة لحرمتها ، ولا عجب فإنه يتمسك دائمًا بالحق مع أنصاره وخصومه على السواء ، كرم الله وجهه .

أم المؤمنين وابن الزبير :

وليس بالأمر الغريب أن تحب الخالة ابن أختها وبخاصة أن أم المؤمنين لم ترزق بأولاد من مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت تُكَنَّى بأم عبد الله ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال لها : تكنى بابنك عبد الله ، فكان يقال لها : يا أم عبد الله ، ولقد جاء فى شرح « نهج البلاغة » : ما سُمِعَتْ أم المؤمنين تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها لعبد الله بن الزبير وقد أعطتْ للذى بشَّرها بسلامته من القتل عشرة آلاف درهم ، ثم سجدتْ شكراً لله تعالى ، ولما اعتلَّت دخل عليها بنو أختها ومنهم عبد الله فبكى ، فرفعت رأسها تنظر إلى وجهه فانتبهت لبكائه ، فبكت ثم قالت : ما أحقنى منك يا بنى ما أرى ، فما أعلم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد أبوىّ أحداً أُنْزِلَ عندى منزلتك ، وأوصت له بحجرتها .

ولم يقف تأثير عبد الله عند خالته أم المؤمنين ، بل تعداه إلى أبيه الزبير رضى الله عنه ، حتى لقد كان أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه يقول : ما زال الزبير رجلاً من أهل البيت حتى نشأ ابنه عبد الله .

تقوى الإمام :

على أننا نسترعى النظر إلى أن أمير المؤمنين علياً لم يكن فى القتال متشفياً فى خصومه ، بل كان أميراً تقياً رحيماً ، ينظر للمسلمين نظرة الأب إلى أبنائه بالسوية ، فقد نقل ابن أبى حديد فى شرح نهج البلاغة عن الواقدى قوله :

« إنهم كانوا حول الجمل يُحامون عنه ولقد كانت الرءوس تندر عن الكواهل[1]

---

(١) تقطع الرءوس عن الأجسام .

والأيدى تطيح من المعاصم ، وأقتاب البطون تندلق من الأجواف ، وهم حول الجمل كالجبال الثابتة لا تتحلحلُ ولا تتزلزل ، حتى لقد صرخ علىّ بأعلى صوته : ويلكم اعقروا الجمل فإنه شيطان ، اعقروه وإلا فنيت العرب ، لا يزال السيف قائمًا راكعًا حتى يهوى هذا البعير إلى الأرض .

وروى الطبرى : ونادى علىّ أن اعقروا الجمل ، فإنه إن عقر تفرّقوا، فضربه رجل فسقط ، فما سُمع صوت أشدّ من عجيج الجمل .

ولما احتُمِلَت السيدة عائشة رضى الله عنها بهودجها أمر الإمام بالجمل أن يحرق ثم يذر فى الريح ، وقال : لعنه الله من دابة ، فما أشبهه بعجل بنى إسرائيل ، ثم قرأ كرّم الله وجهه : (وانْظُرْ إِلَى إِلَـٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ، لَنُحَرِّقَنَّه ثم لَنَنْسِفَنَّهُ فى اليَمِّ نَسْفاً) .

وتفرق الناس بعد موت الجمل ، فنادى منادى أمير المؤمنين :

« ألاّ يُجهز على جريح » ، « وألاّ يتبع مُوَلٍّ » « وألاّ يطْعن مُدْبِرٌ » ، « ولا يستحان فرجٌ ولا مالٌ » .

ولما استشار سيدنا عمارُ بن ياسر رضى الله عنه أميرَ المؤمنين كرم الله وجهه فى الأسرى الذين وقعوا فى أيديهم وقال له : أقتل هؤلاء الأسرى يا أمير المؤمنين ؟ قال الإمام : لا أقتل أسير أهل القِبْلة إذا رجع ونزع [١] ، فبايع الأسرى وأخلى سبيلهم .

ولما قال له أنصاره : مالنا فى هؤلاء الناس ، أجابهم :

لكم ما فى عسكرهم وعلى نسائهم العدة[٢] (أى نساء القتلى) ، وما كان لهم من مال فى أهليهم فهو ميراث على فرائض الله .

فقال له أنصاره : يا أمير المؤمنين كيف تحل لنا أموالهم ولا تحل لنا نساؤهم ولا أبناؤهم ؟ فقال : لا يحل ذلك لكم ، فلما أكثروا عليه قال : اقترعوا هاتوا

---

(١) التزم بطاعة الوالى .

(٢) أى تعتد بأربعة أشهر وعشراً وهى عدة من توفى عنها زوجها من المسلمين .

بسهامكم ، أيكم يأخذ أمكم عائشة فى سهمه .

فقالوا : نستغفر الله ، فقال : وأنا أستغفر الله [١] .

وقد روى ابن قتيبة فى كتاب « الإمامة والسياسة » أن محمد بن أبى بكر دخل على أخته عائشة (أى بعد المعركة) فقال لها : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : علىّ مع الحق ، والحق مع علىّ ثم خرجْتِ تقاتلينه على دم عثمان ؟

قال : ثم دخل عليها الإمام علىّ فسلم وقال : ياصاحبة الهودج ، قد أمرك الله أن تقرى فى بيتك ثم خرجت تقاتلين ؟ أترتحلين ؟ قالت : أرتحل ، فبعث معها أمير المؤمنين كرم الله وجهه أربعين امرأة ، وأمرهن أن يلبسن العمائم ويتقلدن السيوف وأن يكن من الذين يلينها ولا تطلع على أنهن نساء ، فجعلت عائشة تقول فى الطريق (ظنًّا منها أنهن رجال) : فعل الله فى ابن أبى طالب وفعل ، بعث معى الرجال ، فلما وصل الركب المدينة وضَعْنَ العمائم والسيوف ودخلن عليها فقالت : جزى الله ابن أبى طالب الجنة ، فانظر كيف دعت للإمام بالجنة حين علمت حقيقتهن ، وهو صفاء ليس بمستغرب منها وهى إحدى نساء النبى صلى الله عليه وسلم اللاتى تأسّيْن بخلقه وتأدبن بأدبه وتميزن بذلك الأدب العالى عن سائر نساء المؤمنين . وهل ترى أروع من شهادة إحدى ضرائرها وهى السيدة زينب بنت جحش حين سألها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الإفك فقالت بعد أن استعاذت بالله : « أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت إلا خيراً » — كما أن أم المؤمنين عائشة شهدت بالفضل لضرتها السيدة سودة حين تركت ليلتها لها وهى راضية ، فقالت السيدة عائشة تشكرها : « ما رأيت امرأة أحب إلىّ أن أكون فى مسلاخها [٢] من سوْدة » .

أقول : فبماذا تعلل المكارم إلا أن تكون من فضل الله عليهن ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان أمير المؤمنين قبل أن يثير عليها بالرحيل أرسل إليها ابن عمه عبد الله

---

(١) كتاب الإمامة والسياسة .

(٢) أى أكون مثلها .

ابن عباس رضى الله عنهما وكانت فى بيت من بيوت البصرة أنزلها أمير المؤمنين فيه ، وقال له الإمام فيما رواه — صاحب العقد الفريد : ائت هذه المرأة فلترجع إلى بيتها الذى أمرها الله أن تقر فيه .

بين أم المؤمنين وابن عباس :

قال ابن عباس ، فجئت فاستأذنتُ عليها فلم تَأْذن لى ، فدخلتُ بلا إذن ، ومددت يدى إلى وسادة فى البيت فجلستُ عليها ، فقالت أخطأتَ السنة مرتين : دخلتَ بيتى بغير إذنى ، وجلستَ على متاعى بغير أمرى .

فقال : نحن علمناك السنة (يقصد أنه من بنى هاشم الذين شرفهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم وعنه أخذتْ هى السنة ، وسيتضح مقصده هذا من بقية حديثه) والله ما هو بيتك إلا الذى أمرك أن تقرى فيه فلم تفعلى ، إن أمير المؤمنين يأمرك أن ترجعى إلى بلدك الذى خرجت منه ،

قالت : رحم الله أمير المؤمنين ، ذاك عمر بن الخطاب .

قال : نعم وهذا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ،

قالت : أبيْتُ أبيْتُ

قال : ما كان إباؤك إلا فُواق ناقة بَكية ثم [1] صرت ما تَحِلّين وله تَمُرّين [2] ، ولا تأمرين ولا تنهين . قال ابن عباس : فبكت حتى علا نشيجها ، ثم قالت : نعم أرجع ، فإنّ أبغض البلدان إلىّ بلد أنتم فيه .

قال ابن عباس : أما والله ما كان ذلك جزاءنا منك ، إذ جعلناك للمؤمنين أمًّا ، وجعلنا أباك لهم صِدّيقاً (يقصد بركات رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وعلى أبيها كما أشرت آنفًا) .

قالت : أتَمُنُّ علىّ برسول الله يا ابن عباس ؟

قال : نعم : نَمُنُّ عليك بِمن لو كان منك بمنزلته منا لمننتِ به علينا .

---

(١) بكية أى قليلة اللبن ، والفواق مابين الحلبتين .

(٢) يقال أمررت الحبل والخيط أى فتلته فتلا شديدا .

قال ابن عباس : فأتيتُ عليًّا فأخبرته ، فقبَّل بين عَيْنَىّ وقال : بأبى أنت : ذريةٌ بعضُها من بعض .

أم المؤمنين فى الغضب والرضا :

فانظر كيف كانت فى ساعة الغضب ، وكيف كانت رضى الله عنها فى ساعة الرضا ، فقد قالت فى الرضا عندما وصلت المدينة كما مرَّ عليك : جزى الله ابن أبى طالب الجنة .

فهى رضى الله عنها وإن تأثرت بسخط النفس البشرية إلا ، أن طهارة نفسها التقية كانت تردها إلى الحق وتنأى بها عن مزالق الحقد ، وكيف لا يكون منها ذلك المسلك وغضب المؤمن كالبرق الخاطف كما جاء فى الحديث الشريف ، فكيف الصديقة بنت الصديق رضى الله عنهما ، وهى سفيرته الأولى ، صلى الله عليه وسلم ، إلى المؤمنات فى عصره والعصور التالية له ، فكانت رضى الله عنها تحضره إذا بايع النساء أو صلى بهن أو جاسن إليه يسألنه فى أمور الدين وآداب الزوجية ، وكان أحيانًا يعرض عن الجواب حياء ويعهد إليها بتفسير ما يقول . لابل إنها كانت كذلك مرجعًا للرجال فى السنن النبوية والأحكام الشرعية وفى الشئون العامة والخاصة، وكان المؤمنون يفزعون إليها شاكين مما يسوؤهم من تصرفات الولاة فى خلافة أمير المؤمنين عثمان، حتى قال رضى الله عنه فى تبرمه من مسلك أهل العراق: « أما يجد مُرَّاق أهل العراق وفُسَّاقهم ملجأ إلا بيت عائشة ؟» وذلك حين كانوا يطلبون عزل الوليد بن عقبة عن ولاية الكوفة ، وكان الوليد أخًا من الأم لأمير المؤمنين عثمان ، وكذلك شكا أهل مصر لأم المؤمنين واليهم عبد الله بن أبى سرح ، وطلبوا أن يولى عليهم محمد بن أبى بكر ، واستجاب الخليفة لهم ، وحين دخل بنو أمية مصر قتلوا محمداً هذا ومثلوا به أبشع تمثيل ، فقد قتلوه وهو ظمآن ووضعوه فى جوْف حمار ميت ثم شووه بعد أن جروه من رجليه فى أسواق مصر ، وأشهدوا السفلة والصبيان على مُثْلَتِه ، ثم أرسلوا قميصه وهو بدمه إلى المدينة ، وشوت أخت معاوية بن خَديج خروفًا وأهدته إلى أم المؤمنين فى العيد وأوصت رسولها أن يقول لها : هكذا كان شيُّ أخيك ، قالوا فما أكلت السيدة عائشة بعدها

شويئًا قط ، وأقسمت لا تأكله حتى تلقى الله .

وفى مناسبة واقعة التمثيل هذه يتعرض العلامة العقاد فى كتابه « الصديقة بنت الصديق » إلى الأباطيل التى نسبت للسيدة عائشة فيقول :

« وخليق بنا أن نزداد حذراً من هذه المبالغات على قدر أصحاب المصلحة فى قبولها ، وقد اتفق على تكبير نصيب عائشة من التحريض على عثمان مصدران متناقضان وهما : مصدر أصحاب معاوية ومصدر الشيعة أصحاب علىّ ، يريد الأولون ما قدمناه من تخفيف وزرهم فى المُثْلة بأخيها والحيْف عليها ، ويريد الآخرون أن يبطلوا موقفها من مطالبة علىّ بدم عثمان ، وأن يثبتوا براءة على من دم الخليفة القتيل ومشاركة عائشة فى هجمة قاتليه ، فضلا عن مصلحة القاتلين أنفسهم فى التعلل بهذا السند الذى يعفيهم من لوم كثير » .

ويقول العلامة العقاد رحمه الله فى موقف أم المؤمنين فى السياسة العامة فى خلافة أمير المؤمنين عثمان وبعده ما يلى :

« بدأت السيدة عائشة مشاركتها الأولى فى السياسة العامة وهى إلى الاضطرار أقرب منها إلى الاختيار ،

« أما مشاركتها الثانية — أى فى معركة الجمل — فقد كان اختيارها فيها أكثر من اضطرارها ، فإنها تلقت خلافةَ علىّ من مبدئها بالسخط والمقاومة ، وأذنت لبعض الطامحين إلى الخلافة أن يتوسلوا بجاهها ويشركوها معهم فى خصوماتها ، وكان أكرم لهم ولها لو أنهم جنبوها الخصومة وأنزلوها بحيث يعتصم بها الفريقان ، ويستوى فى جيرتها العسكران فتركوا لها مندوحة للمراجعة ، يوم دعاها الدعاة بعد تفاقم الفتنة إلى السعى بينهم بالتوفيق .

« وأصوب ما قيل فى هذا المعنى مقال ذلك الفتى السعدى الذى تصدى للزبير وطلحة فقال لهما : أما أنت يا زبير فحوارى رسول الله ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى أم المؤمنين معكما فهل جئتما بنسائكما ؟

مزايا أم المؤمنين :

روى الإمام القرطبي بسنده عن أم المؤمنين قولها رضى الله عنها وهى تتحدث بنعمة الله عليها : قد أعطيتُ تِسْعًا ما أُعْطِيَتْهُنَّ امرأة : لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتى فى راحته حين أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يتزوجنى ، ولقد تزوجنى بِكْراً وما تزوج بِكْراً غيرى ، ولقد توفى صلى الله عليه وسلم وإنّ رأسه لفى حِجْرى ، ولقد قُبِرَ فى بيتى ، ولقد حفَّت الملائكة بيتى ، وإن كان الوحى لينزل عليه وهو فى أهله فينصرفون عنه ، وإن كان لينزل عليه وأنا معه فى لحافه فما يبينى عن جسده ، وإنى لابنة خليفته وصديقه ، ولقد نزل عُذْرى من السماء ، ولقد خلقت طيبة وعند طيب ، ولقد وُعدْتُ مغفرة ورزقًا كريمًا ، تعنى بذلك قوله تعالى : (لهم مغفرة ورزق كريم) وهو الجنة .

وفى رواية أخرى قالت : فُضلت على نساء النبى صلى الله عليه وسلم بعشر : لم ينكح بكراً قط غيرى ، ولا امرأة أبواها مهاجران غيري ، وأنزل الله براءتى من السماء ، وجاء جبريل بصورتى من السماء فى حريرة ، وكنت أغتسل أنا وهو فى إناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيرى ، وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه دون غيرى ، وكان ينزل عليه الوحى وهو معى ولم ينزل وهو مع غيرى ، وقبض وهو بين سحرى ونحرى ، وفى الليلة التى كان الدور علىّ فيها ، ودفن فى بيتى .

بلاء الإمام :

والحق الذى لامِرْيَة فيه أنّ بلاء الإمام فى هذه الفتنة كان بلاءً مُبِرًّا ، وقد صدق كرّم الله وجهه حين قال فى إحدى خطبه :

« . . . وإنى بليت بأربعة ، أدهى الناس وأسخاهم — طلحة ، وأشجع الناس — الزبير ، وأطوع الناس فى الناس — السيدة عائشة ، وأسرع الناس إلى فتنة — يَعلى بن أمية (كان واليًا لأمير المؤمنين عثمان على اليمن وعزله) .

ولم يغب عن الإمام أنه سيلقى فتنًا كقطع الليل المظلم فقد كان ذا قلب مستنير وعقل كبير ، ولكن الخلافة أتته راغمة ولزمه شرعًا أن يحمل عبأها لوجه الله مهما ثَقُل عليه ذلك العبء كما بين ذلك فى إحدى خطبه حين قال بعد اشتداد الفتن :

أما والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر (أى وقوع الفتن) وقيام الحُجّة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها (أى لتخلى عن الخلافة لولا مالزمه شرعًا من البقاء فيها دفعًا للظلم عن المظلومين) .

ومن العجيب أن يبتلى الإمام بهذه الفتن المتكررة مع أنه لم يطلب الخلافة وإنما هى التى طلبته ، فقد روى الشريف الرضى — كما جاء فى نهج البلاغة — أنه حين تزاحم الناسُ على الإمام بعد استشهاد أمير المؤمنين عثمان ، وأرادوا بيعته خطب فيهم فقال :

دعونى والتمسوا غيرى ، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد أغامت ، والمحجّة قد تنكرت ، واعلموا أنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتْب العاتب ، وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ، ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً خير لكم منى أميراً .

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فى شرح تلك الخطبة : وقد كان بعد بيعته ما تَفَرَّسَ به قَبْلها .

تزاحم الناس على بيعة الإمام :

هذا وإذا أردت أن تعرف كيف تزاحم الناس على بيعة الإمام علىّ كرم وجهه فاستمع إليه وهو يصف التزاحم كما جاء فى نهج البلاغة :

« فما راعنى إلا والناس كعرف الضبع — وهو كثيف الشعر — إلىّ ، ينثالون[1]

---

(١) يجتمعون .

علىّ من كل جانب ، حتى لقد وطىء الحسنان ، وشق عطفاى ، مجتمعين حولى كربيضة الغنم ، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ، ومرقت أخرى ، وفسق آخرون » .

اتهام باطل :

ومن غريب الأمر أن يتهم الإمام بقتل أمير المؤمنين عثمان ، مع أن الإمام أمر ولديه السبطين الحسن والحسين بالوقوف على بابه لحراسته من الثوّار ، مع أنه كان يضن بهما كل الضن خشية أن ينقطع بموتهما نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم (وقد أصاب الإمام الحسن سهم الثوار وسال الدم على وجهه) ، وأمدّه بالماء حين منعه الثوار عنه ، ولبس عمامته وتقلّد سيفه وقال لأمير المؤمنين عثمان مُرْنا فلنقاتل ، فلم يشأ أمير المؤمنين أن تراق بسببه ملء محجة من دم ، وكان الإمام علىّ السفير المؤتمن بينه وبين الثوار ، وكان أمير المؤمنين عثمان يستنجد به كلما ضاق عليه الأمر حتى إنه كتب إليه يقول :

فإن كنتُ مأكولا فكنْ خيرَ آكل وإلا فأدْرِكْنى ولمّا أُمَزَّقِ

وقد كسر الإمام بيتَ المال بعد أن كان طلحة قد استولى عليه، وأرضى الإمامُ الثوارَ بالعطاء، وسَرَّ ذلك أمير المؤمنين عثمان ، ولما جاء طلحة وقال له جئتك تائبًا قال بل جئتنى مغلوبًا ، الله حسيبك، ومع كل ذلك اتهموا الإمام بأنه قاتِلُ عثمان، وما ظهرت تلك التهمة الكاذبة إلا بعد بيعة الإمام بالخلافة حتى قال ابن سيرين رضى الله عنه كما جاء فى العقد الفريد : ما علمت أن عليا اتهم بدم عثمان حتى بويع ، فلما بويع اتهمه الناس .

صبر جميل ورأى حازم :

أقول : ومع مرارة البلاء الذى ابتلى به كان كرم الله وجهه صابراً محتسبًا ، راضيًا بقضاء الله وقدره ، لا يعتز إلا بالله ، ولا يعتمد على سواه ، ويبين لنا ذلك واضحًا فيما كتبه لأخيه عقيل ردًّا على جواب كان بعثه إليه فى بداية الفتنة،

فقد كان فيما كتب الإمام ، كما روى ابن قتيبة :

« . . . وأما ما سألتَ أن أكتب إليك فيه برأيي ، فإن رأيي جهاد المحقين حتى ألقى الله ، لا يزيدني كثرة من حولي عزة ، ولا تفرقهم عني وحشة لأني مُحِق ، والله مع المحق ، وما أكره أن أموت على الحق ، لأن الخير كله بعد الموت لمن عقل ودعا إلى الحق .

« وأما ما عرضْتَ مِنْ مسيرك إلى ببنيك وبني أبيك ، فلا حاجة لي في ذلك ، فذرهم راشداً مهدياً ، فوالله ما أحب أن تهلكوا معي إن هلكت ، وأنا كما قال أخو بني سليم :

فإن تسأليني كيف صبري فإنني صبور على ريْبِ الزمان صليب
عزيز عليّ أن أُرى بكآبة فيشمت واشٍ أو يساء حبيب

صفاء الإمام :

وإن أردت أن ترى صفاء أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه في آخر الأمر كما رأيته في أوله فهاك ما رواه ابن قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة .

دخل موسى بن طلحة على الإمام علي كرم الله وجهه بعد معركة الجمل ، فقال له الإمام :

« إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم : (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ، إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) » . فاعجب معي أيها القارئ من هذا التسامح الذي تخطى فيه الإمام كرم الله وجهه نزعات البشر في خصام أدّى للقتال المرير .

وأمسى عليّ بالبصرة [1] ذلك اليوم الذي أتاه فيه موسى بن طلحة ، فقال له ابن الكواء : أمسيت بالبصرة يا أمير المؤمنين . (خافَ ابنُ الكواء أن يغدر به أهلها) .

قال الإمام : كان عندي ابن أخي .

---

(١) كانت البصرة في صف طلحة والزبير .

فقال ابن الكواء : ومن هو ؟

قال : موسى بن طلحة .

قال ابن الكواء : لقد شقينا إن كان ابن أخيك .

فقال الإمام : ويحك ، إن الله قد اطلع على أهل بدر فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم »[1] .

ولا تعجب مع مقالة ابن الكواء أن كان رأسًا بعد ذلك من رءوس الخوارج وداعية من دعاتهم حتى قتل فى موقعة النهروان . وقد ذهب هؤلاء الخوارج فى تطرفهم إلى القول بأن عائشة وطلحة والزبير كفروا بمقاتلتهم عليا ، وتولوا عليا إلى ما قبل التحكيم ، فلما قبل التحكيم ، قالوا بكفره وأباحوا دمه ودم كل مسلم لا يقول بقولهم ولا يدين بمذهبهم .

فقه الإمام :

وقد سئل الإمام على كرم الله وجهه عن خصومه فى معركة الجمل فيما رواه ابن أبى حديد فى شرح « نهج البلاغة » فقيل له : أكُفَّارٌ هم ، فقال : لا ، من الشرك فروا ، قالوا : أمُنَافِقُون هم : قال : لا ، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا وهم ليسوا كذلك ، فقالوا له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بَغَوْا علينا . وقد رأيتَ مما مر عليك أنّه قاتلهم قتال أهل البغى ، فلم يُجهز على جريح أو يقتل مُدْبراً ، أو يَأسر مستسلمًا ، أو يسترقّ النساء .

رأى أهل السنة :

والرأى الذى يعتقده المسلمون من أهل السنة هو ما يقول به الأشاعرة وهو كما جاء فى كتاب « الملل والنحل » : إن أصحاب الجمل أخطأوا ، ولكنه خطأ مغفور ، كخطأ المجتهد فى بعض مسائل الفروع ولا يلزم به الكفر ولا الفسوق ولا التبرؤ ولا العداوة . فكن مع أهل السُّنَّة فى اعتقادهم هذا فإنهم بتوفيق الله على الحق .

---

(١) كما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الإمام سليم فى موقفه :

أما موقف الإمام فلا شك أنه موقف سليم من مبدئه إلى منتهاه، فإن الذين بايعوه بالمدينة هم الذين بايعوا الخلفاء أبا بكر وعمر وعثمان وكان من بينهم طلحة والزبير ، فالتزما رضى الله عنهما ببيعتهما ، ولكنهما أتياه بعد فراغ البيعة — فيما رواه بن قتيبة — فقالا له : هل تدرى علام بايعناك يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، على ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان ، فقالا : لا ، ولكنا بايعناك على أنا شريكاك فى الأمر ، فقال الإمام : لا ، ولكنكما شريكان فى القول والاستقامة والعون على العجز والأَوَد .

ولم يرض طلحة والزبير بموقف الإمام منهما ، وكان طلحة يقول : ما اللوم إلاّ علينا ، كنا ثلاثة من أهل الشورى (طلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وقد تنحى سعد) كرهه أحدنا وبايعناه وأعطيناه ما فى أيدينا ومنَعَنَا مافى يده .

وقد أشار ابن عباس على الإمام بأن يُولى البصرة الزبير ، ويولى طلحة الكوفة ، فقال له الإمام فيما قال : . . . ولو كنت مستعملا أحداً لضَرّه ونفْعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر لى من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى .

الأستاذ الخطيب فى إنصافه للإمام :

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه القيم « على بن أبى طالب » فى موقف كبار السادة الصحابة الكرام فى معركة الجمل :

« إن المرء ليحار إذ يرى هؤلاء النخبةَ المتخيرةَ من الناس تُغْلَب على أمرها فى بعض المواقف ، ويخذلها رأيها وبصرها ، وتركبها حيْرة محيرة فلا تدرى أية وُجهة تتجه ، ولا أى مسلك تسلك، ولا تأويل لهذا إلا أنه ابتلاء ابتلى الله به عباده، وامتحان امتحنهم به ، وما نحسب القتلى الذين سقطوا فى هذا البلاء إلا فى عداد الشهداء كمن يموتون بوباء من الأوبئة الجائحة .

« يقول الزبير ، رضى الله عنه ، عشية الاستعداد للمعركة ، إن هذه لهى الفتنة التى كنا نُحَدَّثُ عنها »؛ فيسأله سائل : أتسميها فتنة وتقاتل فيها ؟

«فيقول له: ويحك! إننا نُبْصر ولا نُبْصر. ما كان أمر قط إلا عرفت موضع قدمى فيه غير هذا الأمر. فإنى لا أدرى أمقبل أنا فيه أم مدبر (الطبرى)».

«إن الزبير رضى الله عنه. يعلم أنها فتنة ويقاتل فيها. إنه لا يملك الفتنة ولكنها تملكه. إنها قَدَرٌ غالبٌ لا مردّ له».

«وإذا كان هذا هو شأن أصحاب الرسول والصفوة المتخيرة من صحابته، فكيف بعامة الناس، وكيف بمن انقاد للفريقين.

«... يقول الزبير، رضى الله عنه، وقد رأى الغوغاء تحرّش بين الناس، وتفتح بينهم طرقًا إلى الالتحام والقتال. يقول: ما كنتُ أرى أنّ مِثْلَ ما جئنا له يكون فيه قتال[1].

«ولو أنه خلى بين الصحابة وبين هذا الخلاف لعالجوه بغير الحرب، ولأعطوا الرضا من أنفسهم ولكن كان ما كان، ووقع مالم يكن فى الحسبان:

«وأقول فى نهاية المطاف إن الحق كان مع الإمام على كرم الله وجهه. وغلبة المقدر عذرت خصومه فقد قدروا شيئًا وقدر الله غيره، فتابوا وندموا على ما كانوا. فلنذكر المحق والتائبين بالفضل، ولنرع حرمةَ الإمام وحرمة طلحة والزبير بالصحبة، والثلاثة من العشرة المبشرين بالجنة، ولنحفظ حرمة سيدتنا أم المؤمنين. فهى أحب نسائه إليه صلى الله عليه وسلم، وهى الصديقة بنت الصديق كما لقبها المحدثون عنها من الصحابة الأخيار، وقد نزلت براءتها فى حديث الإفك من السماء وصارت قرآنا يتلى فى المحاريب. ولله الأمر من قبل ومن بعد». ولعلك توافقنى فى أن رأى الأستاذ عبد الكريم الخطيب رأى منصف.

عذر الإمام:

أقول: وهب أن أم المؤمنين عائشة كانت تنتظر أن يشهد لها الإمام على فى حديث الإفك، فهل شهد عليها فى قوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لم يضيق عليك، وقد قصد الإمام بذلك أن يُفرّج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو فيه من ضيق، لا عن شك فى مسلك زوجه الأثيرة، ولكن عن إشاعة الفاحشة فيها كذبًا على ألسنة ألد أعدائه من المنافقين عبد الله بن أبىّ بن سلول.

---

(١) البيان والتبيين.

تسامح أم المؤمنين :

وقد دلتنا أم المؤمنين بموقفها بعد ذلك من سيدنا حسان بن ثابت على أنها لاتحمل بين جنبيها قلبًا حقوداً . ولا خلقًا عنيداً ، فمع أن حسان كان ممن خاضوا فى حديث الإفك وجُلِد بسببه ، فإنها كانت تَرْثى له لفقد بصره ، فقد حدَّث مسروق فقال: دخلت على عائشة وعندها حسان فقلت لها: أيدخل عليك هذا وقد قال الله عز وجل :

(والَّذِى تَوَلَّى كِبْرَه[1] مِنْهُمْ لَهُ عذابٌ عَظِيمٌ) . فقالت : أما تراه فى عذاب عظيم قد ذهب بصره ؟

وقال هشام بن عروة عن أبيه : كنت قاعداً عند عائشة فمروا بجنازة حسان، فَنِلْتُ منه ، فقالت : مَهْلاً ، فذكرتها كلامه ، فقالت فكيف بقوله :

فإن أبى ووالِدَهُ وعرضى لعرضِ محمد منكم وقاء

وأضافت رضى الله عنها قائلة : إن اللهَ يَغْفِرُ له بهذا البيت .

ويقول العلامة العقاد فى تعقيبه على هذه الرواية : ولا شك أن الذى ذكرته السيدة عائشة لحسان لا ينسى ، وأن الذى صفحت عنه بعد ذلك كثير ، وإن حمد الصفح هنا أولى من ملاحظة التذكير والتبكيت .

أقول : فأيهما أولى بالصفح ؟ حسان الذى خاض فى حديث الإفك وأقيم عليه الحد ، أو الإمام فى موقفه من حديث الإفك حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ الله لم يضيق عليك . النساء كثير ، وليس فى ذلك خوض بإفك بل تخفيف على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ضاق صدره بما يقولون كذبًا ورجمًا بالغيب .

وإذا كانت أم المؤمنين قد قدَّرت لحسان دفاعه بلسانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أفلا تقدر لأمير المؤمنين دفاعه بسيفه فى نصرة الله ورسوله وافتداء رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بات فى فراشه ، وهى الألمعية الرشيدة التى

(١) معظمه .

أدركت كذلك جهاده فى بدر وفيها والاها من الغزوات ، ثم هل كان يفوتها ما كان للإمام من مكانة وإعزاز عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهل جهلت أن الله تعالى صان ذريته صلى الله عليه وسلم وجعلها من صلب الإمام ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال معتزًا بسبطيه الحسن والحسين رضى الله عنهما : « إنما هما ابناى وابنا ابنتى ، اللهم إنّى أحبهما فأحبّهما وأَحبّ من يُحبهما » وهل كانت تجهل ما كنّه صلى الله عليه وسلم من محبة للإمام وزوجته الزهراء ؟ فكيف لا تحب بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إرضاءً لله ورسوله وإن خالفت فى هذا الحب هواها ؟ إن السيدة الزهراء جاءت أباها صلى الله عليه وسلم برجاء من زوجاته فقالت له : إن نساءك ينشدنك الله العدل فى بنت أبى بكر فقال لها : يا بنية ألا تحبين ما أحب ؟ قالت : بلى . قال : فأحبى هذه يشير إلى عائشة ؛ فهذه تربيته الشريفة التى لا تفوت أم المؤمنين التى امتازت بسعة العلم وقوة الإدراك والحرص على مرضاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان الإمام مخيَّراً بين إرضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين إرضاء أم المؤمنين ، فمن الطبيعى أن يكون أكثر مواساة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى شدته النفسية فى حديث الإفك ، وإذا كان لابد لأم المؤمنين من إرضاء أحد الخصمين فى معركة الجمل فمن الطبيعى أن تكون أقرب إلى طلحة ابن عمها والزبير زوج أختها ، وبخاصة أنه لم يكن فى حسبانها أو حسبانهما أن يقع قتال مرير على النحو الذى شاءه الله وقدّره ، وإذ كان لا مناص من أن يصون الإمام بيعتَه الشرعية وسلطانه الذى آتاه الله بهذه البيْعة ، فإنه نصح لخصومه قبل القتال وأعذر إلى الله وانتصح الزبير كما انتصح طلحة ولم تتهيأ فرصة لأم المؤمنين قبل أن ينشب القتال المفاجئ الذى بدأه الدهماء من الفريقين فغلب المقدور على ما قدَّرتْه رضى الله عنها من العمل على الإصلاح بينهما ، ونطق لسان الحال من كل من الإمام وطلحة والزبير وأم المؤمنين :

قدرتُ أشياءً وَقَدَّرَ غيرَها حظٌّ يخط مصاير الإنسان

ومادام الإمام أَعْذَر إلى الله بنصح خصومه قبل القتال ثم استعمل فى القتال

حقه الشرعى حفاظاً على سلطانه ، وما دام طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تابوا إلى الله من موقفهم فقد آخذوا أنفسهم بأنفسهم ولم يتركوا مجالا لمؤاخذة جديدة من الباحثين فى أمرهم فإننا نشيد بتقواهم ونسأله تعالى الرضا عنهم .

أمانة التبليغ :

وإليك ما يقوله العلامة العقاد فى كتابه « الصديقة بنت الصديق » ، عن أمانة التبليغ التى اضطلعت بها فى الإسلام أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها :

« وقد نهضت السيدة عائشة بأمانة التبليغ والتعليم أحسن نهوض وأوفاه ، فتورعت عن كتمان شىء من الأشياء التى تسأل عنها ولها اتصال بقواعد الدين وأصول التطهير وشروط العبادات ونواقض الصلاة والصوم .

« فأسلوبها فى تبليغ هذه الأحكام هو أسلوب التعليم ، وأسلوب أم المؤمنين فى خطاب بناتها وبنيها من المسترشدات والمسترشدين . ولم يكن فى مقدورها أن تتوخى أسلوباً غير هذا الأسلوب ولو عرضت لأخص الأمور التى تسكت عنها النساء ، لأنها المرجع الذى لا يغنى عنه مرجع فى سنن النبى ومأثوراته وأعماله . فمن الإخلال بالأمانة النبوية أن تسكت عن سُنَّة مطلوبة يعرضها السكوت للضياع .

« وقد تكون هذه السيدة الفضلى التى أفصحت عن كل فتوى نسوية سئلت عنها وهى ما تأذن لعمها فى الرضاع أن يراها إلا بعد مراجعة النبى عليه السلام . فأسلوبها فى تفصيل السنن النبوية والقواعد الشرعية إنما كان فريضة الأمانة وضريبة الوفاء ولم يكن شيمة الطبع واللسان » .

أم المؤمنين وصدق الرواية :

ويتعرض العلامة العقاد لصدق روايتها فيقول رحمه الله فى الكتاب ذاته :

« وقد كانت بنت أبيها فى أكثر من خصلة واحدة من هذه الخصال النادرة بين الرجال والنساء . ولكنها كانت أشبه ما تكون فى خصلة الصدق التى بها

اشتهر ومن أجلها نُعت بالصدّيق ، وغلب هذا النعت عليه حتى أوشك أن ينسى الناس اسمه الذى دعاه به أبواه . . .

« فى الغاشية التى أطبقت على العالم الإسلامى من جراء الخلاف على الخلافة تطايرت الأحاديث الموضوعة من هنا وهناك ، وتعمد أناس أن يصوغوا من عندهم حديثًا لكل حزب ينصره ويرضيه ويكبت خصمه ويخزيه . . .

« وكانت السيدة عائشة تشترك فى خصومات المتخاصمين على الخلافة باختيارها أو تساق إلى المشاركة فيها على كره منها ، وكانت هى أول من يُسمع له إذا روت حديثًا يدفع خصومها ويعزز أنصارها . ولكنها لم تنقل قط فى كل ما ثبت نسبته إليها حديثًا واحداً تمسه الشبهات من قريب أو بعيد ولا تؤيده الأسانيد الأخرى . . . ولهذا كانوا يروون عنها الأحاديث فيقولون : حدثتنا الصديقة بنت الصديق .

« ومن الصفات التى شابهت فيها أباها : الذكاء المتوقد والبديهة الواعية ولم تقصر فيها عن شأو .

« فحسبها أنها روت للنبى عليه الصلاة والسلام أكثر من ألفى حديث فى مختلف المسائل التى تدخل فيها الأحكام الشرعية والعظات الخلقية والآداب النفسية والأصول التى يرجع إليها فى الدين والعبادة . . .

« ومع هذا يروى الثقات أنها كانت تحفظ وتفقه وتفسر ، ولا يقتصر علمها على وعى الكلمات والعبارات ، حتى قال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه :

« ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها علمًا فيه » .

وقال عطاء بن أبى رباح : كانت أفقه الناس ، وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأيا فى العامة . وقال مسروق الهمذانى : « رأيت مشيخة رسول الله الأكابر يسألونها عن الفرائض (المواريث) » .

وقال عروة بن الزبير : « ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة » .

وهاك على سبيل المثال ما أوصت به معاوية حين طلب إليها النصيحة ،

فقد أرسلت إليه تقول : أما بعد فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَن التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومَن التمس رضاء الناس بسخط الله وكَّله الله إلى الناس .

ورع أم المؤمنين :

وفى طبقات ابن سعد أن موسى بن داود قال : سمعت مالك بن أنس يقول : قُسِّم بيت عائشة باثنين ، قِسْم كان فيه القبر وقسم كانت تكون فيه عائشة وبينهما حائط ، وكانت عائشة ربما دخلت حيث القبر بلا تحفظ ، فلما دفن عمر رضى الله عنه لم تدخله إلا وهى جامعة عليها ثيابها .

وعن عائشة رضى الله عنها : ما زلت أضع خمارى وأنفصل فى ثيابى[1] حتى دفن عمر فلم أزل متحفظة فى ثيابى حتى بنيت بينى وبين القبور جداراً .

أم المؤمنين والتزام البيت :

ونعود إلى مجريات الحوادث فنقول : إن أم المؤمنين رضى الله عنها عادت إلى المدينة بعد معركة الجمل ، والتزمت بيتها المبارك الذى كان ينزل الوحى فيه ، واستردت سعادتها بعيدة عن الخلاف والاختلاف ترجو الخير للأمة الإسلامية كلها ، وودت أنها لم تشارك فى ذلك الخلاف الذى سالت فيه دماء غزيرة عزيزة تألم لها الفريقان ، وغلب فى سفكها المقدور على الظن والتقدير . فما ظن القوم أن يقع القتال المرير كما وقع ، بل ظنوا أن يصلوا بالتفاهم إلى كلمة سواء ، وقد أوشك التفاهم أن يتم فى سلام بين أمير المؤمنين وطلحة والزبير لولا أن تشابك الدهماء كما سبق القول واندفعوا فى القتال فى فتنة عمياء ، فرد جيش أمير المؤمنين على الشر بمثله صيانة لحقه وإبقاء لسلطانه على الخارجين عليه ، وهو أول قتال يقع بين المسلمين من الفريقين وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

---

(١) أى أخلع الخمار وأتخفف من الملابس ، فلما دفن عمر تحرجت لأنه غريب — أما الرسول فزوجها وأما أبو بكر فأبوها — فتحفظت وأبقت ثيابها عليها . فعاملتهم معاملة الأحياء ولو أنهم فى القبور . وهذا من فقهها وذوقها وورعها رضى الله عنها .

أم المؤمنين تعاتب ابن عمر :

وقد بلغ من مرارة النفس عند أم المؤمنين من اشتراكها فى معركة الجمل أنها — فيما روى ابن عبد البر — رصدت لابن عمر من يُعْلِمها به إذا مر بها ، فلما مر بها وعلمت به ، قالت ادعوه ، فدعوه ، فقالت :

يا أبا عبد الرحمن ، ما منعك أن تنهانى عن مسيرى ، قال : رأيت رجلا غلب عليك ، وظننت أنك لا تخالفينه ، قالت : أما إنك لو نهيتنى ما خرجت .

أم المؤمنين والأزدى :

كما روى الطبرى عن أبى جُنْدُب قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها بالمدينة ، فقالت : من أنت ؟ قلت رجل من الأزد أسكن الكوفة ،

قالت : أشهدتنا يوم الجمل ، قلت : نعم ، قالت : لنا أم علينا ؟

قلت : عليكم ،

قالت : أفتعرف الذى يقول : يا أمنا يا خير أمٍّ نعلم[1] .

قلت : ذاك ابن عمى .

قال : فبكت حتى ظننت أنها لا تسكت .

يوم الجمل :

وكذلك روى ابن الأثير فى أسد الغابة أن متحدثًا تحدث إليها فذكر يوم الجمل ، فقالت : والناس يقولون يوم الجمل ؟ قال نعم ، قالت : ووددت لو أنى كنت جلست كما جلس صواحبى ، فكان ذلك أحب إلىّ من أن أكون ولدتُ من رسول الله بضع عشرة كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ومثل عبد الله بن الزبير .

---

(١) هذا من رجز ارتجز به الحارث بن زهير الأزدى وكان فى جيش أمير المؤمنين ، قاله حين رأى قومه يسقطون قتلى وهم يتهافتون على خطام الجمل ، والرجز كاملا هو :

يا أمنا يا خير أم نعلم أما ترين كم شجاع يكلم

وتُختلى هامته والمعصم

توبة نصوح :

وأنت ترى من ذلك أن نفس أم المؤمنين الزكية كانت نفسًا كريمة لوّامة متطهرة ، والندم توبة صادقة وأى توبة ، واللوم طهارة باطنة وأى طهارة . فقد توالت بعد معركة الجمل أحداث جسام كانت تستطيع أن تشارك فيها السيدة عائشة ضد الإمام علىّ ، ولكنها لم تفعل. وهذا ما يؤيدنى فى دحض ما اتهمت به من عداوة أكيدة للإمام على بسبب شهادته فى حديث الإفك .

وقد رأيت ما كان من طلحة والزبير ، فقد بايع طلحة مرة أخرى قبل موته وقال لأحد جنود الإمام أبْلِغْه أنى مُبايِعه ، وانسحب الزبير من المعركة قبل أن يقع القتال قائلا لأمير المؤمنين : لقد أذكرتنى ما أنسانيه الدهر ، والله لو ذكرتها ما خرجت . ومن هنا أجمع العلماء على توبة الثلاثة فى رشد ورجوع للحق .

رأى العلامة العقاد :

ومع أن العلامة أنصف أم المؤمنين رضى الله عنها فى آخر بحثه إلا أنه فى بداية البحث خطّأ الإمام فى مشورته فى حديث الإفك وخطّأ أم المؤمنين فى خصومتها للإمام وربط بين هذه الخصومة وقصة الإفك ، فقال فى كتابه « الصديقة بنت الصديق » :

« فعلىٌّ قد أخطأه التوفيق فى نصيحته ، وعائشة قد أخطأها التوفيق فى مكافحته من أجل هذه النصيحة .

وإنك لتعجب معى من أن يربط العلامة العقاد بين مشورة الإمام وموقف أم المؤمنين منه كما فعل غيره ، مع أن ما انتهى إليه رحمه الله يكاد يتفق مع وجهة نظرى ويباعد بين الأمرين ، وإليك ما انتهى إليه، فى ذلك الكتاب بعد قوله المتقدم :

« ولكننا إذا ذكرنا هذا ، كان علينا أن نذكر معه أنها ندمت على موقفها من يوم الجمل أشد ندامة ، فكانت تقول بقية حياتها :

« ليتنى متّ قبل يوم الجمل ، وكانت تقول : لَيْتَ كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنون عشرة وثكلتهم ولم يكن يوم الجمل ، وكانت كلما خاض الناس فى حديث ذلك اليوم تبكى حتى تبل خمارها . ثم أضاف يقول فى صدق رحمه الله :

« وعلينا أن نذكر أنها صانت خصومتها عن كل كلمة نابية فى حق علىّ رضى الله عنه ، فلم تتهمه بدم عثمان ولم تتجاوز بالتهمة بعضَ مَنْ بايعوه ، وقالت عنه مرة : إنه الصوام القوام ، وإنه أحب الناس إلى رسول الله .

« وعلينا أن نذكر أن المغريات بالاندفاع فى هذه الغاشية كثيرة :

« حدة فى الطبع ، ومفاجأة تبتدر الحدة ، وبيئة مطبقة بالعداء لعلىّ ، وسعىٌ حثيث من أقرب الناس إليها وأقربهم إلى إقناعها .

« وإنها مع هذا أقدمت على مورد مُبْهم لا يتضح الشرُّ فيه ، وترددت هنالك بين إقدام وإحجام ، واعتقدَتْ أن الأمرَ لا يفضى إلى قتال ، وأصغت إلى دعوة الإصلاح ودعت إليه ، وهو حادث لابدّ له من عبرة ، وأن عبرته لأحق عبر التاريخ الإسلامى بالتسجيل » .